الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعةأبي بكربلقايد – تلمسان – الملحقة الجامعية – مغنية –

قسم اللغة و الأدب العربي

مذكرة لنيل شهادة الماستر

التخصصدراسات أدبيـــة

المعجم الديني في إلياذة مفدي زكرياء

إعداد الطالبة: إشراف الأستاذة:

شقراني فتيحة د.نورية بن عدي

اللجنة المناقشة

أ.حورية مرتاض	أستاذة مساعدة أ	رئيسة
د. نورية بن عدي	أستاذة محاضرة	مشرفة و مقررة
أ. محمد كامش	أستاذ مساعد أ	مناقشا

السنة الجامعية:

2015-2016م/1436-1437هـ

دعاء

قال الله تعالى: " وَقَالَ رَبُّكُمْ اُدْعُونِي اَسْتَجِبْ لَكُمْ" سورة غافر / 60

وقال أيضا: " وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللهِ" سورة النحل/53.

اللّهُمَّ إنا نسألكَ أَنَّ تَقوِّي إيمَانَنا وَتلهمنا الثّباتَ وَالسَّدَادُ عِنْدَ الْقَوْلِ، وَالْحِكْمَةَ عِنْدَ الْفِعْلِ.

اللّهُمَّ وَفْقِنَا إِلَى طَلَبَ الْعِلْمَ، وَحُب الْخَيْر، وَحُسْن الْخُلُق.

اللّهُمّ ساعِدنا على ذِكرك، وشكرك واتِّباع سبيل الْهُدى، واجتِناب السّيِّئات.

اللّهُمّ لا تدعنا نصاب بِالغُرور إذا نجحنا، ولا نصاب بِاليَأس إذا فشلِنا، بل ذكِرنا دائِما أنّ الفشل هو التّجربة الّتي تسبِّق النّجاح.

اللّهُمّ إذا أعطَيتنا نجاحا لا تأخُذ تواضُعنا وإذا أعطَيتنا تواضُعا لا تأخُذ إعتِزازنا بِأنفُسنا

اللّهُمّ تقبل منّا هذا العمل ووَفقنا في ما علمتنا.

كلمة شكر وتقدير

أتوجه بالشكر الكبير إلى الدكتورة نورية بن عدّي التي كانت جمودها مخلصة في مساعدتي لانجاز هذه المذكرة وإخراجها فتعلّمت منها الجدّية والإخلاص والاعتماد على النفس الذي هو أساس العمل.

فلها مني أسمى عبارات الاحترام والتقدير وجازاها الله بالخير واليمن والبركات.

كما أتوجه بالشكر و التقدير إلى جميع أساتذتي و في طليعتهم الأستاذين الكريمين حورية مرتاض و محمد كامش على تجشمهما عناء القراءة و التصويب فلهما مني أصدق عبارات الشكر و الامتنان.

وكما لا أنسى شكري لأخي العزيز عبد الفتاح فله مني كل الحب والتحية والتقدير، أطال الله في عمره ورزقه الصحة والعافية.

وشكري إلى التي ساعدتني على تصحيح مذكرتي أمينة.

- إلى نبع الحنان وسرّ الأمان والتي حملتني وهنا على وهن و أنارت حياتي بضيائها أمي
- إلى الذي ذبت جذوري في أرض العلم وساعدني في مسيرتي وأوصلني إلى برّ الأمان أبي
- إلى روح أختي الطاهرة والزكية نبية

إلى أبنائي قرّة عيني طيور الجنّة ماريا ومحمد علاء الدين.

- إلى أغلى وأحلى وأعزّ أخ في الوجود حفظه الله ورعاه عبدالفتاح
- إلى زوجي عبد النور وعائلته صغيرهم وكبيرهم.
- إلى أغلى أخواتي في الكون:

خليفة وفاطمة وحورية وأزواجهنّ وأبنائهنّ وفائزة.

- إلى كل دفعة 2016 ملحقة مغنية.

الطالبة: شقراني فتيحة

مقدمة

مقدمة:

لقد ظهرت حركة الانتعاش الفكري والأدبي بالجزائر أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، في ظل مناخ سياسي جديد ،أدّى بالجزائر إلى الانفتاح على العالم الخارجي عربيا وإسلاميا، فتولد عن ذلك كلّه تنامي الحسّ الوطني بين الجزائريين ،بعد أن اتسعت الصّلة بين الشرق والغرب عبر روافد مختلفة، كالصّحافة، والهجرة إلى فرنسا والمغرب.

وفي ظلّ هذه الظروف ظهر جيل من المصلحين، والأدباء، والشعراء عبّر عن مواقفه ورؤاه بطرق فنيّة، اهتدى من خلالها إلى استخدام مجموعة من وسائل التعبير الفنية ، التي تمّ توظيفها في البناء الفنّي للقصيدة الجزائرية الحديثة، من لغة شعرية موحية، وصور فنية مدهشة، وتناص وإيقاعات نغمية.

وقد تمخض عن ذلك كلّه ،صراع فكري بين العربية والإسلام من جهة، وبين سياسة الاستعمار والفكر الموالي من جهة أخرى، غير أن ذلك لم يمنع من غلبة الطّابع الديني، على ملامح الحركة الإصلاحية عند جيل كامل من الشعراء ،من بينهم مفدي زكرياء الذي اتسم دون غيره بمنهجه العلمي وآرائه الضاربة في العقلانية والسموّ.

ممّا جعل معظم شعره يطفع بمعاني حب الوطن ،والحريّة ،والدّين حتى صار سفير الجزائريين وتجاوزت إلياذته حدود الوطن الجزائري إلى العالم الإسلامي والغربي.

وبالرّغم من وفرة البحوث والدّراسات التي دارت حول هذه الشخصية إلاّ أنّنا أردنا إلقاء الضوء على خصائص المعجم الدّيني في إلياذته، باعتبار أن جوانب عدة مما لاتزال غير مدروسة .

ومّما دفعنا إلى اختيار هذا الموضوع رغبتنا في الكشف عن بعض خبايا مصطلح المعجم الدّيني ، الذي ما يزال يحيط به الكثير من الغموض والضبابية رغم الجهود المبذولة، وكذا الوقوف على مدى تجلياته في إلياذة الجزائر.

وقد اقتضت طبيعة الموضوع اعتمادنا على مقاربة تاريخية وصفية لا تخلو من التحليل، خاصة وأن عالم الإلياذة يأخذنا إلى مراحل حافلة من تاريخ الجزائر، ويبحر بنا في أعماق تاريخها المجيد .

لذلك انطلقنا من مجموعة من التساؤلات حول مفهوم المعجم الـــدّيني ووظيفتـــه في الإليـــاذة وأشكال تجلياته ومواطنه في المدوّنة المختارة.

وعليه، فقد قسمنا بحثنا إلى ثلاثة فصول أسبقناها بمدخل ومقدمة، وأعقبناها بخاتمة وفهـــارس لمحتويات الدارسة، حيث خصصنا الفصل الأوّل لحياة مفدي زكرياء وتناولنا، في شكل مبحـــثين أحدهما في سيرته الشخصية والآخر، في سيرته الأدبية.

وتناولنا في الفصل الثاني تجليات الثقافة الدينية، في شعر مفدي زكرياء مـــن خـــلال ثلاثـــة مباحث، تناولنا في الأوّل منها التناص الديني و في الثاني توظيف الشخصيات التراثية الإسلامية، و في الثالث توظيف المصطلح الدّيني، أمّا الفصل الأخير فقد خصّصناه للحديث عن وظائف المصطلح الدّيني في الإلياذة، مقسمين إياه إلى ثلاثة مباحث ، فجعلنا الأوّل منها معرضا لموضوعات الإلياذة، أمّا الثاني فقد خصّصناه للحقول الدلالية فيها، ووقفنا في المبحث الأخير عند وظائف المعجم الديني في الإلياذة.

وقد استعنت في أثناء بحثي بجملة من المصادر والمراجع التي اهتديت في ضـــوئها في مقدّمتـــها إلياذة مفدي زكرياء، وشعر الثورة عند مفدي زكرياء ليحي الشيخ صالح، ومفدي زكرياء شاعر مجد الثورة للمؤلف بلقاسم بن عبد الله، وغيرها من المراجع الأخرى، كما جرت عودتي إلى القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

وقد واجهت جملة من الصعوبات أثناء بحثي أهمّها قصر الوقت، ونذرة المراجع الـــتي تناولـــت المعجم الدّيني في إلياذة مفدي زكرياء، بالإضافة إلى صعوبة الحصول عليها.

وفي الأخير أشير إلى أنّ هذه الدراسة المتواضعة تظل جهدا يشوبه النقص، على الرغم من سعينا إلى إبراز معالم هذه الشخصية الجزائرية الفذة، التي لا تفيها كثرة الدراسات من حولها حقها من العناية والاهتمام.

ولا يسعني في الأخير إلا أن أتقدم بالشكر إلى الله سبحانه وتعالى الّذي أنعم علينا بنعمة العلم والمعرفة، وأشكر الأستاذة المشرفة ، فلها مني وافر الدعاء بالخير والصّحة والعافية ،إذ أنها كانت لي مصباحا منيرا أثناء قيامي ببحثي هذا ، فلساني يعجز عن شكرها، كما أتوجه بالشكر للجنة المناقشة التي ستشرف على قراءة هدا البحث وتصويبه ، وإلى كل من ساندني وكان عوناً لي من قريب أو بعيد وإلى كل من قرأ بحثي هذا أو اعتمد عليه في دراسته.

المدخل: مفاهيم ومصطلحات

المدخل: مفاهيم ومصطلحات

- مفهوم الإلياذة وتاريخها
- المعجم الديني لغة واصطلاحا

أوّلا: الملحمة: إن الحديث عن الإلياذة يقتضي الوقوف عند الملحمة، ولذلك تشير في مدخل هذه الدراسة إلى العلاقة القائمة بينهما.

أ. **لغة:** الملحمة كما ورد في لسان العرب، الوقعة العظيمة القتل، وقيل موضع القتال، وألحم الرّجل إلحاما واستلحم استلحامًا إذا نشب في الحرب فلم يجد مخلُصًا،... و في الحديث الشريف "اليوم يوم الملحمة" و في حديث آخر "ويجمعون للملحمة"، وهي الحرب وموضع القتال والجمع ملاحم. وهي الحرب ذات القتل الشديد.

كما يدل على معنى الإحكام، فيقال يحمُّ الأمر بمعنى أحكم.[1]

وألحم الشعر: نظمه فهو ملحم، والقصيدة: ملحمة إذا كانت مترابطة محكمة وكلا المعنيين يؤذيان إلى معنى اللفظة الفنّي وهو تعريف الملحمة كفن أدبي: الملحمة جنسي أدبي شعري يحكي قصصا بطولية يمتزج فيها الخيال بالواقع والتاريخ بالأسطورة، والحوادث الخارقة للعادات.[2]

ب. **اصطلاحا:** هي مزيج من الخوارق والحقائق الدينية والروحية والاجتماعية، وعرفت عند الشاعر هومروس الذي اعتبر الأب الروحي لهذا الفن ومن ابرز أعماله الإلياذة والأوديسا فموضوع الأولى حرب طروادة، أمّا الثانية فموضوعها عودة أو ديسيوس من الحرب.

والشعر الملحمي عند **أحمد أبي حاقة:** "قوامه القصص البطولي والأعمال العظيمة الخارقة، والسير الطويل المتشعب، كما أنّه حكاية شعب في نضاله، وفي تقدمه عبر الحياة المتطورة، وتاريخ الأمجاد، وسجل لوقائعه الكبرى، ومآثره بين الشعوب، فهو يعني بالإنسان كجماعة لا كفرد، ويهتم بالفعل الكلّي على نقيض ما يفعل الشعر الغنائي، وهو يمجد الأمّة، ويمدح فضائلها ويتغنّى بما يصدر عنها من عمل".[3]

---

[1] لسان العرب، ابن منظور، تح: ياسر سليمان أبو شادي، مادّة: ل ح م، المكتبة التوقيفية القاهرة، ج12، ص280.

[2] ينظر: التناص الديني في إلياذة الجزائر، لعزالي صليحة، مذكرة تخرج لنيل شهادة ماستي في الأدب العربي، 2011 – 2012- جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس، ص12، نقلا عن علي بوملحم، في الأدب وفنونه،المطبعة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان،دس، ص23.

[3] شعر الثورة عند مفدي زكريا، (دراسة فنية تحليلية)، يحي الشيخ صالح، دار البعث للطباعة والنشر قسنطينة (الجزائر)،ط1،1407ه – 1987م، ، ص203.

وممّا تقدم من تعاريف يمكن القول أنّ الملحمة شعر موضوعي يتصف بالطول ويحكي بطولة شعب في فترة ما من تاريخه بكثير من التعلق والحماسة بالاعتماد على الخوارق والأساطير.

والملحمة تعريب لكلمة épos الإغريقية، وقد ظهر المصطلح بالعربية لأوّل مرّة في بداية القرن الحالي. عندما بدأت النهضة العربية تؤتي ثمارها، وبدأ النقد العربي يفكر في الاستفادة من تراث الغرب ونقده.

ثانيا: مفهوم الإلياذة

إنّ كلمة إلياذة كعنوان تعد كعتبة أولى متمظهرة تحيلنا على مفهوم الملحمة والّتي هي فن أدبي يكون قصيدة سردية بطولية خارقة للمألوف تعتمد على مخيلة إغرائية يخلقها عالم أوسع وأكبر من العالم المعروف.[1]

ويعرفها **علي جواد الطاهر** بأنّها قصيدة تقوم على السرد القصصي تبلغ من الطول آلف الأبيات، وتتضمن حادثة بطولية خارقة وقعت فعلا في تاريخ سابق على النظم فدخلت في تقاليد الشعب وأمجاده وأناشيد شعرائه وحكاياته وأساطيره وأقصى خياله، ترسم المثل الأعلى للشعور القومي، ويتناقلها جيل عن جيل لأنها تستحيل رموز العواطف الجماعية الضخمة من وطنية وإنسانية ودينية.[2]

و في تعريف **ميشال عاصي** هي: " قصيدة شعرية طويلة تدور أحداثها حول معارك ضخمة وبطولات خارقة خاضها شعب من أجل من أجل قضية تتصل بوجوده الإنساني والقومي ودفاعا عن مأثوراته ومقدساته العريقة، وهي إذ تصف المعارك والبطولات تصور عصرا بكامله من عصور هذا الشعب، وما يعيش فيه من تقاليد ويسعى إليه من مثل، ويتبناه من مفاهيم ومعتقدات وأفكار".[3]

[1] المعجم الأدبي، جبور عبد المنعم، دار العالم الملايين بيروت، لبنان ،ط2، يناير 1984، ص264.

[2] شعر الثورة عند مفدي زكريا ،يحي الشيخ صالح، ص203.

[3] المرجع نفسه، ص 203.

فكلمة إلياذة تحيلنا إلى تاريخ عريق لما يتجلى في اليونانية تحديدا إلياذة هوميروس التي دارت أحداثها حول حرب طروادة، تلك الحادثة الواقعية الملفوقة في لباس الأسطورة والخيال وهذا ما يقال عنه الملحمة البدائية أو الصنيعة أي من صنع الإنسان الأوّل.[1]

ومن هنا نجد أن الإلياذة حملت الخرافة في طياتها ومع ذلك لا تنفي وجود الواقعية وممّا لاشك فيه أن كل أسطورة ملحمية تتضمن في جذوها بذرة تاريخية دقيقة يطلق عليها الشعراء ما يحلولهم".[2]

ومن ثم دارت الإلياذة حول الخرافة وأبطال الأسطورة أمثال هوميروس، فرجيل، والشهامة الفارسية...إلخ على عكس الملحمة الحديثة التي تتناول بطلا واحدا، وهي أقرب في الواقع منه إلى الخيال وهذا ما جسده تقريبا مفدي زكرياء من خلال جعل الجزائر بطلا لإلياذته ذات الألف بيت.

ثالثا: في مفهوم إلياذة الجزائر وتاريخها:

"إلياذة الجزائر" مدونة شعرية مكتوبة في ألف بيت وبيت، والإلياذة عند الغرب هي ملحمة النّاس ومجريات التاريخ، وقد خالطتها الأساطير والخوارق، أمّا عند مفدي زكرياء هي التّاريخ والبطولة المشدودان والفعل الدّائم للنّاس وهم في دورين أساسيين من أدوار حياتهم:

- **الدّور الأوّل:** هو مواجهة المحتلّ بالأرواح الزّكية والدّم الطهور والشجاعة النّادرة.
- **الدور الثاني:** هو البناء الأزلي الدّائم منذ بدايات العمران الأولى وحتّى يوم النّاس الرّاهن.

"إلياذة الجزائر" كتابة شعرية قام بها ثلاثة هم: **مفدي زكرياء ومولود قاسم نايت بلقاسم وعثمان الكعاك** مشاركة في الاختيار، والاهتمام، والمطالعة، والانتباه، والتّقصي، والسّؤال، وجهات روافدها المكانية ثلاثة أيضا وهي: **الجزائر وتونس والمغرب**، حيث كان مفدي يعيش في المغرب (الرباط) وكان مولود قاسم نايت بلقاسم مقيما بالجزائر وعثمان الكعاك في تونس.[3]

---

[1] المعجم الأدبي ،جبور عبد النور، ص264.

[2] المرجع نفسه، ص265.

[3] - ينظر إلياذة الجزائر، مفدي زكرياء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1987، ص11.

أمّا تاريخ الإلياذة فهو ثلاثي الأبعاد والدّوائر أيضا، فهو **أوّلا** تاريخ الجزائر عبر امتداداته الواسعة، وهو **ثانيا** تاريخ المغرب العربي الحافل بالمعاني، وهو **ثالثا** التاريخ الإسلامي الرّحيب عبر إنجدال شعري فكري، والإلياذة سجلت الأيام الخوالد في حياة الشعب الجزائري انتسابا للكتابات العربية القديمة التي سجّلت أيام العرب وإقتداء بالمدوّنات الشعرية الغربية الّتي حفظت تاريخ البلدان وأفعال البشر العمرانية وبطولاتهم الأسطورية.

إنّ الوقوف على إلياذة الجزائر" هو وقوف أمام موهبة شعرية نادرة في عطائها، وجمالها، وقدرتها، وإحاطتها الآسرة، كما أنّه وقوف أمام مدوّنة التاريخ الجزائري، ووقوف أيضا أمام معطيات الحياة وجولان النّاس وتياهة العقول والأدوار والاجتماعية التي اقتضتها معطيات الحضارة.

وإلياذة الجزائر تتماشى وألم الجزائريين الذي نزف طوال قرنٍ ونصف من الزمن في كل سطر من سطورها.

و"إلياذة الجزائر" هي أجمل وأكمل صياغة لتاريخها بآمالها وآلامها، بانتكاساتها وانتصاراتها، كما هي وظيفة التّاريخ لأية أمّة من الأمم إذ هو عقلها، كما قال الفيلسوف الألماني **شوبنهاور** "التاريخ للأمم هو كالعقل للأفراد"[1]. إذ أنّه هو مرشدها ودليلها وخلاصة تجاربها وسجل مجدها ووجودها كأمّة بين الأمم بتأكيده عناصر الشخصية ومكونات الذاتية والأصالة لديها.

رابعا: المعجم الدّيني:

والمعجم كما هو شائع في الحقل اللّغوي كتاب يضم مفردات مرتبة ترتيبا لغويا معينا يعين على معرفة معانيها وأصل اشتقاقها، أو ما يقابلها بلغة أخرى، وهو ما يستعاض عنه بلفظة "قاموس" وقد تطوّر استعمال هذا المدلول (معجم) في الحقل الأدبي والنقدي للدلالة على مجموع المفردات التي يشتمل عليها نصّ من النصوص الإبداعية، والّتي تشترك في مجموعة من الخصائص المعنوية، بحيث شاع في الدراسات الحديثة استخدام بعض المصطلحات: كالمعجم الشعري، والمعجم الديني، والمعجم

[1] المصدر السابق، ص16.

التاريخي،....وهي على اختلاف دلالتها، تشكل أداة بيد الدّارس لحصر مجموعة من الألفاظ ذات الخصائص المعنوية المشتركة والّتي يمكن ترتيبها وحصرها ضمن قائمة معينة ذات سمات مشتركة.

أمّا لفظة "دين" تتعلق بالأديان السماوية والإسلام واليهودية والمسيحية، وإن كان الدين الإسلامي أوفرها حظا في قلوب وعقول الأدباء والشعراء، فقد وظّف الأدباء وخاصة الشعراء الدّين الإسلامي في شعرهم وخاصة النصوص القرآنية، حيث يعتبر القرآن الكريم المصدر الأوّل للتعاليم الدينية، فهو المعجزة التي ليس لها سابقة ولا لاحقة في تاريخ الحياة الروحية الإنسانية، سواءا أكان هذا التوظيف باستدعاء النصوص أو بالتلميح بمضامينه الكريمة، وكذلك اهتم الأدباء والشعراء بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وصفاته الكريمة وصحابته رضوان الله عليهم.[1]

ولقد استخدمنا في دراستنا هذه، مصطلح المعجم الدّيني للدلالة على جملة الخصائص المشتركة بين مجموعة من الألفاظ التي تنتمي إلى الحقل الديني، والتي عادة ما تعكس تشبع الكاتب أو الشاعر بمجموعة من الأفكار والمعتقدات الّتي تعكس توجهه الدّيني.

ولقد شاع عند مفدي زكرياء استخدام العديد من المصطلحات المستقاة من عمق ثقافته الدينية الّتي تشكلت في الأساس من حفظه للقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، ومن واقعه الدّيني الإسلامي...

كما يمكن للدّارس تصنيف هذه التجليات لأجل دراستها في أشكال مختلفة، كالحقول الدّلالية والتناص الّديني واستدعاء الشخصيات التراثية وغيرها...

[1] توظيف التراث في شعر مُعين بسيسو، نادر ظاهر، تاريخ النشر 2012-08-06 – موقع الكتروني.

الفصل الأول: مفدي زكرياء

الفصل الأول: مفدي زكرياء

المبحث الأول: سيرته الشخصية

المولد - النشأة - عوامل النبوغ - نضاله- مناصبه.

المبحث الثاني: سيرته الأدبية

طبيعة ثقافته - آثاره الأدبية- أغراضه الشعرية.

المبحث الأول: سيرته الشخصية

أولا: مولده

واسمه الحقيقي " زكرياء بن سليمان بن يحي بن الشيخ الحاج صالح سليمان. ولقبه الشيخ أو آل الشيخ. وعن حياة جدّه الحاج سليمان، ولهذا لقبت العائلة لقب آل الشيخ فقد كان أحد شيوخ مدينة بني يزقن، يترأس الإتحادالميزابي، ففي حضن هذه العائلة الماجدة زكرياء اشتهر باسمه المعروف **مفدي زكرياء**".[1]

وهناك أسماء مستعارة، الفتى الوطني، أبو فراس الحمداني، ابن تومرت، ولقبه أحد زملاء البعثة الميزابية بـــ **مفدي** فأصبح يعرف به.

وقد ولد يوم الجمعة 12 جمادى الأول 1326ه الموافق لـــ 12 جوان 1908 م ببلدية بني يزقن بمنطقة بني ميزاب أو ما يعرف حاليًا بولاية غرداية.[2]

كان مفدي زكرياء أنيقا جدًا بحيث لا تراه إلاّ وهو يرتدي بذلة أوربية فاخرة، بربطة عنق وقميص يتاوجان معها في اللّون.[3]

وتنحدر أسرته من بني رستم، الّذين أسسوا مدينة تيهرت في القرن الثاني من الهجرة (تيارت حاليًّا)[4].

ثانيا: نشأته

بدأ مفدي زكرياء مساره في مسقط رأسه، متعلّماً من كتّاب البلدة،حيثحفظ جزءًا من القرآن الكريم ومبادئ اللّغة العربية والفقه،ثم اصطحبه والده معهوهو ابن سبع سنين الى مدينة عنابة شمال شرق الجزائر التي كان تاجرًا بها وفيها أتم حفظ القرآن ثم جعليتردّد بينها وبين مسقط رأسه و لم

---

[1] تأملات في إلياذة الجزائر لمفديزكرياء ، بلحيا الطاهر، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، د.ط، 1989 ص 38.

[2] مفدي زكرياء شاعر مجد الثورة،حوارات وذكريات بلقاسم بن عبد الله، ط 3، الجزائر 2003، ص 13.

[3] معجم الشعراء الجزائريين في ق 20، عبد المالك مرتاض، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2007، ص 432.

[4] المعجم الشعري عند شعراء الثورة الجزائرية، دراسة معجمية دلالية، محمد العيد آل خليفة، مفدي زكرياء، أحمد سحنون (نماذج) ، وهيبة وهيب، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في اللغويات العربية القديمة، نوقش في ديسمبر 2015، ص29.

تنتظم دراسته، حتّى سنة 1922 إذ قرر والده إرساله إلى تونس ضمن البعثة التعليميةالميزابية ليتابع دراسته،فالتحق بمدرسة السلام القرآنية مدة سنتين، نال خلالهما شهادة ابتدائية في اللّغة العربية، ومبادئ في اللغة الفرنسية، وبعدها انتقل إلى المدرسة الخلدونية، حيث درس مواد علمية كالحساب والجبر والهندسة والجغرافيا.[1]

وعندما تحول إلى جامع الزيتونة إنكبّ على الدّرس والتحصيل والمطالعة المستمرة وحضور مسامرات الأديب التونسي العربي الكبادي كما ارتبط بصداقة حميمة متينة مع الشاعر الجزائري رمضان حمود، وكذلك مع الشاعر التونسي المعروف أبو القاسم الشابي. ونظرًا لذكائه وشاعريته ولطف إحساسه لقبه أستاذه الحطاب بوشناق لقب "مفدي"[2].

أعجب زكرياء بهذا الإسم لأنه وجد فيه ما يرضى طموحه الأدبي والوطني، تعبيرًا عن ذلك، في مطلع نشيد "حزب الشعب" (فداء الجزائر روحي ومالي) ، وفي قوله سنة 1935 (وطني بروحي أفديتك ومهجتي ودمي الشريف مبرة ووفاء)، وبعد ذلك أصبح مفدي يكتب الشعر معتمدًا على مواهبه، وميوله وجده واجتهاده[3]، وفي هذا الصدد يقول:

" وأما الشعر فأنا فيه أستاذ نفسي، غير أني أعرض بضاعتي أساتذتي رؤساء البعثة الميزابية الزحافات والعلل والدوائر ولي اطلاع شخصي على العروض والموازين ولقد شفعت حبًا بالآداب طفلا وبتاريخ الأبطال من عظماءالأوطان" [4]

إن السنوات الدراسية الخمسة التي قضاها بتونس (1922-1926) هي التي كونته هذا التكوين الأصيل ووجهت حياته هذا التوجيه الأدبي والسياسي.

---

[1] مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة "دراسة ونصوص"، محمد ناضر، جمعية التراث "العطف غرداية، الجزائر ط2. ص 8-9.

[2] مفدي زكرياء شاعر مجد الثورة،حوارت وذكريات ، بلقاسم بن عبد الله، الجزائر، ط3، ص 14-15.

[3] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[4] مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة، محمد ناصر ، ص 10.

ثالثا:عوامل نبوغه

تعد فترة مكوثه بتونس مرحلة التكوين الأصيل التي وجهته التوجيه الأدبي والسياسي، كما كان للبيئة الإسلامية التي نشأ بها ولمصادر ثقافته الدينية ولما عاناه من استبداد الاستعمار الفرنسيأثرا في تشكيل شخصيته الشعرية المتحدية التي طبعت إنتاجه الأدبي، ولذلك سندرجها في ثلاث عوامل مهمة كالتالي:

العامل الأول:

ويتمثل في جوّ البعثة، فإن النشأة العربية الإسلامية الأصيلة التي نشأها، قد تركت في نفسه بعد الآثار، وأوقعت في أعماقه حب الإسلام والعربية والوطن فكُرِه إليه كل من يحاول المسّ بهذه المقدسات أيّا كان لاسيما وأن أولئك المشايخ كانوا يقدمون النموذج العلمي لتلامذتهم فقد كانوا جميعهم أعضاء مناضلين، منخرطين في صفوف الحزب الحرّ الدستوري تحت زعامة الشيخ عبد العزيز الثعالبي[1].

ونظرًا لاهتمام مفدي وفطنته لما يدور من حوله وذلك من خلال مشاهدته لأعمال الزعماء الكبار من أمثال الثعالبي والبارودي والرياحي وهم يفدون على دار البعثة واستقبالهم الطلبة بحفاوة ويجلسون إليهم في محاضرات أو ندوات تدور كلها حول ترسيخ معاني الاعتزاز بالدين والشخصية والعمل على تحرير الوطن من أعدائه وفي هذا يقول "درست على هؤلاء دروسًا دينية وأخرى في الوطنية والتضحية في سبيل الوطن العزيز والأمة المجيدة"[2].

وفي هذه الفترة نلاحظ تأثر مفدي بزعماء ومشايخ البعثة العلمية، وأصبح في هذه الأثناء يقرأ المجلات، والصحف الشرقية، التي تبعث النخوة والوطنية، فيتشربها ويتخذ مواضعها مجالًاللتدرب على الإنشاء والكتابة، نثراً وشعرًا.

[1] ينظر مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة، محمد ناصر، ص11.

[2] المرجع نفسه، ص 16.

العامل الثاني:

لقد احتك مفدي زكرياء بعدد من التونسيين نذكر منهم الشيخ عبد العزيز الثعالبي مؤسس الحزب الدستوري، والوطني المشهور بمواقفة الشجاعة ضدّ الاستعمار، وكان للثعالبي علاقة وطيدة بعم مفدي الشيخ صالح، حيث كانا يتزاوران ويجتمعان كثيرًا بمنزل هذا الأخير نتيجة لنشاطهمامعًا في الحزب وكان مفدي يرى نشاطهما ويسمع لأحاديثهما ومشاريعهما النضالية فيعيها وتركت في شخصيته أثرًا قويًا.[1] وساعدته في تكوين حياته فظل يحفظ توجيهات ووصايا الزعيم الثعالبي، وكان يرددها في مناسبات عديدة، ومن ذلك قول الثعالبي المشهور:

"كفانا أن يحتفظ من ماضينا بالدين والأخلاق، وما عداها فإلى الدمار إلى البوار"[2]

وقد عبر مفدي زكرياءباعتزاز شديد عن تتلمذه لهذا الزعيم الوطني ودلالة الاعتزاز يوم استقبله بقصيدته الرائعة بمناسبة عودته من المنفى سنة 1937، بعد غياب دام خمسة عشرة سنة، مبايعًا إيّاه بالزعامة، معاهدا على المضي قدما في النضال والمقاومة وفي هذا الصدد يقول:

يـــازَعِيمَ الشَّـــــــمَالِ وَالشَّرْقِ يَا مَنْ مَلأَ الشَّرْقَ وَالشَّمَالَجُهُوداً
إِنَّ شَعْبَ الْجَزَائِرِ الْيَوْمَ قَدْ جَاءَ يهَنِئُ لِوَاءَكَ المـــــــــــــعقُودا
وَيُهَنِيكَ بِاسْمِهِ حِزْبُ شَعْبٍ فِي الْمَبَادِئِ فَقَدْ كَانَ مِنْكَ وَلِيدًا
فَهُوَ مِنْ روحِكَ الْعَظِيمَةِ جُزْءٌ فَتَقَبَّلُ مِنْ بَعْضِكَ التَمـــــــــجِيدا[3]

العامل الثالث:

ويتجسد في الجو الوطني الحار الذي كانت تعيشه تونس في العشرينيات ولا سيما بعد الحرب العالمية الأولى. فقد عرفت هذه الفترة بطابع المجابهة، في القوى الوطنية وسلطات الاستعمار

[1] شعر الثورة عند مفدي زكرياء، دراسة فنية تحليلة، يحي الشيخ صالح، ط1، 1407 ه – 1987 م، قسنطينة، ص39 – 40.
[2] ينظر، مفدي زكرياء شاعر النظال والثورة، محمد ناصر، ص 24.
[3] ينظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

إضافة إلى الأجواء الثقافية المتفتحة على الروافد الشرقية، فمن المعروف أن الرقابة على هذه الروافد في تونس، كانت أول استحكاما منها في الجزائر[1].

إن هذه العوامل مجتمعة قد تظافرت على نشأة الشاعر نشأة وطنية، وأثرت فيه تأثيراً قويًا حين واجهته هذه الوجهة الشعرية منذ 1925، بدا واضحا أن حياته الأدبية اتصلت اتصالاً وثيقا بنشاطه السياسي الوطني.

رابعًا: نظاله

لم ينظم مفدي زكرياء إلى جمعية العلماء ولكنه كان يبارك خطواتها ويخلد أعمالها بقصائد رائعة. ولحسن حظه فقد وجد ضالته في حزب "نجم شمال إفريقيا" ذي المبدأ التحرري الصريح، فكان مفدي لسانه المعبر الفصيح لأن هذا الحزب لم يستقطب الكثير من المثقفين، بل أن أغلب المنخرطين فيه من العمال والطبقات الشعبية البسيطة[2].

وسرعان ما لمع نجم مفدي زكرياء، في إطار " نجم شمال افريقيا " ثم في اطار "حزب الشعب" وتقلد فيه مسؤوليات شتى فكان أمينا له، ورئيس تحرير جريدته "الشعب". ومن أعضاء إدارته، وبالسرعة نفسها امتدت إليه يد الإِضطهاد الإِستعماري فأودعه سجن بربروس ليقضي فيه سنتين كاملتين من 1937 إلى 1939.

وباندلاع الثورة الكبرى سنة 1954، واكبها مفدي بشعره وسجل بطولاتها ووقائعها، و لم يطل به الأمر حتى ألقي عليه القبض سنة 1956 فتنقل بين سجن البرواقية وسجن بربروس.

ويروي عنه أصدقاؤه في السجنين من أمثال أحمد بوعلام ومحمد زيتوني أنه كان شديد الإيمان بانتصار الثورة، غير مبال بحياة السجن وعذابه، فكان يركز اهتمامه وحديثه على أبناء الشهداء وأراملهم، وما يجب على الثورة أن تقوم به تجاههم عند الاستقلال[3].

---

[1] المرجع السابق ، ص13.

[2] شعر الثورة عند مفدي زكرياء، دراسة فنية تحليلة، يحي الشيخ صالح، ص41.

[3] المرجع نفسه، ص43-44.

وفي سنة 1959 أفرج عن مفدي زكرياء، ففر إلى المغرب ومنها إلى تونس ليتلقى العلاج اللازم لأنه خرج من السجن منهوك القوى ضعيف البنية نتيجة ما لاقاه من تعذيب، وهناك تم علاجه على يد الطبيب الثوري الإفريقي "فرانز فانون frantz fanon ".

وفي سنة 1961 جدت أحداث بالمغرب الأقصى أهمها وفاة محمد الخامس وتولية الحسن الثاني، فتوجه مفدي وشارك في التظاهرات التي أقيمت بالمناسبتين باسم الجزائر"[1].

وخلال هذه الفترة قام مفدي برحلات مكثفة دامت أربعة أشهر ونصف شهر تنقل خلالها بين دول عربية شقيقة مليئة بالنشاط الثوري فأصبح جلُّ حديثه عن ثورة الجزائر، وقد نجح في هذه المهمة الترحالية لأن مختلف الأقطار العربية طلبت منه إسماعها صوت الجزائر وثورتها.

بعد هذا النشاط المكثف، قد لا يكون غريبًا أن تعلق جريدة "الصباح" على ذلك بما يلي: "مفدي زكرياء سفير الجزائر بدون أوراق اعتماد...".

وفي نهاية سنة 1961 والثورة لا تزال ملتهبة صدرت الطبعة الأولى من ديوان اللهب المقدس، وبهذه المناسبة أقامت رابطة القلم الجديد بتونس حفل تكريم للشاعر بتاريخ 17 فيفري 1962 وباستغلال الجزائر عاد مفدي إلى أحضان وطنه لكنه لم يعمر إلا قليلا ورجع إلى تونس من سنة 1963 إلى 1969 وفي هذه السنة غادر تونس متجهًا إلى المغرب فاستقر فيه، وإن كان يتردد بين الجزائر وتونس، فيُشارك في جلّ ملتقيات الفكر الإسلامي بتدخلاته وقصائده وعلى رأسها ملحمته "إلياذة الجزائر".

وفي مدينة تونس بتاريخ 17 أوت 1977 الموافق لـــ 03 رمضان 1397 انتقل الشاعر مفدي زكرياء إلى رحمة الله، ونُقل جثمانه إلى أرض الوطن الجزائر، وبالتحديد إلى مسقط رأسه بميزاب يغطيه العلم الوطني الجزائري الذي كتب الشاعر نشيده بدمه، ليرقد آمنا مطمئناً في الأرض التي قضى حياته وهو يهتف بها، وينادي بعزتها وكرامتها[2].

---

[1] المرجع السابق, ص44-45.

[2] شعر الثورة عند مفدي زكرياء، دراسة فنية تحليلية، يحي الشيخ صالح، ص 48.

هكذا عاش مفدي زكرياء بوطنه الذي أحبه من أعماق قلبه فضحى من أجله بكل ما أوتي من طاقات فكرية وإبداعية وجهادٍ سياسي.

خامسًا: مناصبه

انضم مفدي زكرياء إلى صفوف العمل السياسي والوطني منذ أوائل الثلاثينيات، فكان مناضلاً نشيطا في صفوف جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين، كما كان عضوًا نشطا في حزب نجم شمال إفريقيا ثم في إطار حزب الشعب، قد تقلد فيه مسؤوليات شتى، فكان أميناً لهذا الأخير، ورئيس تحرير جريدته "الشعب" ومن أعضاء إدارته[1].

ثم صار عضوًا في جمعية الانتصار للحريات الديمقراطية بعد انضمامه إلى صفوف جبهة التحرير الوطني الجزائري.

وبمجيء الثورة كان سباقاً إلى رحابهافارتمى فيها ولقي في سبيلها ألوان العذاب. وببزوغ "فجر الحرّية" استقر بالجزائر في نشاط وفتح مكتباً للتمثيل التجاري ولكنه كان عاثر الحظ في هذا المجال، و لم تسعفه الظروف للاستقرار فتوجه إلى تونس سنة 1963 وهو يعيش بتونس، وقد تسلم عن طريق قرض للاستثمار "سينما بريتيس" الواقعة بنهج الملازم "تاج" بالعاصمة التونسية.

وفي سنة 1969 غادر تونس متجهًا إلى المغرب، فاستقر فيه وعمل مديرًا لمعهد "الحسن الداخل"، وبقي شبه مستقر في المغرب وإن كان يتردد كثيرا بين الجزائر وتونس[2].وفتح خطاً لنقل البضائع.

وهكذا ظل مفدي زكرياء طول حياته بين أعماله التجارية والإدارية وإبداعاته الأدبية يتردد بين أقطار المغرب العربي، مشاركاً في تظاهرات ونشاطاته الثقافية والسياسية بشعره ومناقشاته في جل ملتقيات الفكر الإسلامي بالجزائر.

---

[1] شعر الثورة عند مفدي زكرياء، دراسة فنية تحليلية، يحي الشيخ صالح، ص41.

[2] المرجع نفسه، ص 48.

المبحث الثاني: سيرته الأدبية

أولا: طبيعة ثقافتهو مصادرُها

إن أصالة الشاعر ترتبط ارتباطاً وثيقا بمدى تعلقه بتراثه ومنابع ثقافته، فمنانتمائه لهذه الأصول وتمسكه بها تنبثق شاعريته التي تميزه عن الشعراء وتكون شخصيته الشعرية المتفردة وغير خافٍ أنّ علاقة الشعراء المعاصرين بالتراث متينة، فالبياتي والسياب وأدونيس شرِبوا منه حتى الثمالة.[1]

وما شاعرنا إلا واحداً من هؤلاء الذين تأثروابالتراث ومصادره حيث تنبع ثقافته من البيئة الإسلامية الأصيلة التي نشأ فيها، وثقافته الدينية، ولما عاينه من استبداد الاستعمار الفرنسي أكبر الأثر في تكوين شخصيته الشعرية التي طبعت إنتاجه الأدبي لذلك كان التراث العربي الأصيل بمصادره الفنية المعروفة من قرآن كريم، وأدب عربي بمفهومه الواسع شعراً، وقصصاً، وأمثالا وتاريخا إسلاميا، وكل ما يمت بصلة إلى الحضارة العربية الإسلامية[2]حاضراً في أشعاره.

أ. القرآن الكريم:

إن المصدر الأول للتراث في شعر مفدي زكرياء هو القرآن الكريم الكتاب المقدس عند جميع المسلمين، وقد كان شاعرنا مداوماً على قراءته فحفظ جزءًا منه وأصبح هذا المصدر من أغزر الروافد صباً في شعره، وظهر هذا جليّاً في لغته الشعرية وتصويره البديع. ومن أمثلة ذلك قوله في قصيدته الذبيح الصاعد:

قَامَ يَخْتَالُ كَالـــــمَسِيحِ وئـــــيدَا يَتَهَادَى نَشْوَانُ يَتْلُو النَّشِيدَا
بَاسِمَ الثَّغْرِ كَالْمَلاَئِكِ أَوْ كَالْطِّ فْلِ يَسْتَقْبِلُ الْصَّبَاحَالجَدِيـــــــدَا[3]

---

[1] مصادر التراث في شعر مفدي زكرياء، إلياس مستاري، مجلة يصدرها مخبر أبحاث في اللّغة والأدب الجزائري، العدد 9 ، جامعة بسكرة، الجزائر2013، ص 153.

[2] مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة، المؤسسة الوطنية للفنون الطبيعية، محمد ناصر، الرغاية، الجزائر ط2، 1989 ص 106.

[3] اللّهب المقدس، مفدي زكرياء، الديوان، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، ط2، 1973، ص9.

ب.الأدب العربي:

أمّا المصدر الثاني من مصادر التراث عند مفدي زكرياء فهو الأدب العربي شعره ونثره فهو مطَّلع على دواوين الشعراء العرب والقصص والأمثال والحكم والتاريخ، وهي تعتبر من أهم الروافد التي تصنع ثقافة الشاعر "فالشعر لسان هذا الإنسان الصادق الذي يترجم نبضات قلبه بحروف متوهجة مدادها يسري في عروق الحياة"[1]

ومن القصائد المشهورة التي تأثر بها مفدي زكرياء، قصيدة أبي تمام " السيف أصدق أنباء من الكتب"، و لم يستطع إخفاء إعجابه بها ممّا جعله يقلدها وذلك حين يمجد الثورة الجزائرية ويحييها في قوله:

السَّيْفُ أَصْدَقُ لَهْجَةً مِنْ أَحْـــــرِفُ كَتَبْتِ، فَكَانَ بَيَانُهَا الْإِبْهَـــامِ

وَالنَّارُ أَصْدَقُ حُجَّةً، فَاُكْتُبْ بِهَـــــــا مَا شِئْتُ، تَصْعَقُ عِنْدَهَا الْأَحْلاَمَ

إِنَّ الصَّحَائِفَ لِلصَّفَائِحِ أُمرُّهَـــــا والحِبْرُ حَرْبٌ ، وَالْكَلاَمُ كَلاَمٌ[2]

وعلى ما يبدو فإنّ التأثر واضح جدا ببائية أبي تمام، لأن الشاعر افتتن بجمالها وحسن صيغاتها، فراح يسوق لهجة وحجّة المحسنات البديعية خاصّة الجناس في قوله: الصحائف للصفائح.

أما القصيدة التي ألقاها باسم الجزائر، في مهرجان الشعر بدمشق يوم 23 سبتمبر 1961 بعنوان (رسالة الشعر في الدنيا مقدسة) فقد بدا تأثره بنونية ابن زيدون التي ذاع صيتها وضحا في الآفاق، فقد صال وجال فيها، حيث يقول:

سَـــلْ الْعُرُوبَةَ هَلْ ضَجَّتْ لِشَكَوَانَا؟ وَسَلْأُمِّيَّةَ هَلْ رَجَّـــتْ لِبَلَوَانَا

ويَاذَرى الشَامِ هَلْ هَاجَتْ مَوَاجِدُنَا؟ فَبَارَكَ الشِّعْرُ فِي نَـــادِيكِلُقْيَانَا؟

ويا دِمَشْقُ هَلْ اِبْـــتَلَتْ جَـــوَانِحُنَا ؟ بَعْدَ التَنَائي ، الَّذِي قَدْ كَانَ أَضْنانا؟

---

[1] أوراق في النقد الأدبي،إبراهيم رماني، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة الجزائر، ط1، 1985، ص42.

[2] مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة، محمد ناصر، ص 142.

وإلى جانب هذا كله نجد الشاعر مفدي زكرياء يعمد إلى الاقتباس حينا وإلى التضمين حينا آخر. وهو يقتفي أثر الشعراء السّابقين والمعاصرين له[1].

وبهذا فقد تعددت قصائد مفدي التي استدعت نصوصا غائبة، وحولتها إلى خيوط في نسيجها، بحيث بات النص المستدعى والنص الغير مستدعى نصّا واحداً متلاحمة أجزاؤه، متداخلة عناصره، متشابكة صوره ورموزه.

ج. التاريخ:

أما المصدر الثالث الذي أفاد منه شاعرنا مفدي زكرياء فهو التاريخ ولا سيما التاريخ الإسلامي، والحق أن الشاعر برع في الغوص في أعماق هذا التاريخ وأنطق شخصياته وحوادثه، بحيث أصبح شعره ينبض بالحياة، وقد تميز مفدي عن بقية الشعراء الجزائريين في هذا التصوير الذي غرفه من التاريخ الإسلامي العربي.[2]

وأهم عمل يمثل هذا الاتجاه هو **الإلياذة** فهو يستعرض فيها تاريخ الجزائر وأهم أحداثه ليجعل من هذا التاريخ مادة لصورة الشعرية البديعة ابتداء من الرومان حتى الاستقلال، وساعده في ذلك اطلاعه الواسع على هذا التاريخ وانتقاله بين أقطار المغرب العربي فهو دائم التنقل كثير الترحال.

وكل هذا جعل قريحته تنفجر شعراً يخلد ويمجد هذا التاريخ ويربط حاضره بماضيه في صور بديعة غاية في الجمال، خاصة حين يقف عند بعض المدن العريقة كالجزائر العاصمة، وبجاية، وتلمسان، وفاس والقيروان ...الخ[3].

ومن أمثلة هذه الصور الشعرية وصفه لمدينة قسنطينة المعروفة تاريخيا باسم (سرتا):

وَانْزِلْ بِدَارَاتِ (سِرْتَا) مُطْرِقَا أَدَبًا فَبَيْنَ أَظْلُعَتِهَا آباؤُنَا الــصَّيْدُ

وَامْشِ الْهَوِينَا فَفِي أَحْشَائِنَا أُمَمٌ وفيجَوَانِحِهَا، أَسْدُ مَعَامِيدِ

---

[1] الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، عز الدين إسماعيل، دار العوردة، بيروت، لبنان، ط3، 1981، ص 311.

[2] اللهب المقدس، الديوان، ص 263 وما بعدها.

[3] مصادر التراث في شعر مفدي زكرياء، إلياس مستاري، مجلة المخبر، ص 159.

دَمُ الصَّحَابَةِ مَعْجُونٌ بِتُربَتِهَا قَدْ خَلَّدَتْهَا عَلَى الدُّنْيا الأَسَانِيدُ

تَيَاهَةٌ، تَزْدَهِي عَجَبًا بشَاهِقَـــةٍ مِنَ الْجِبَالِ لَهَا اللهُ تَوْحِيدُ [1]

وعلى العموم فإن الدّارس المتصفح لتاريخ مفدي زكرياء الثقافي والمعرفي يتبين له مدى استفادة الشاعر من القرآن الكريم وإعجازه، والأدب العربي وشعرائه والتاريخ العربي الإسلامي حيث يقف على المنابع والأصول التي كانت تنمي ثقافته الفكرية والأدبية والشعرية وكيف أنه تميز عن باقي الشعراء في صدقه مع نفسه، وصدقه مع أبناء شعبه وتاريخه ومقدساته الإسلامية.

ثانيا: آثاره الأدبية

من آثاره الأدبية مايلي:

تاريخ الصحافة العربية في الجزائر لمفديزكرياء جمع وتحقيق د. أحمد حمدي، تاريخ النشر، الجزائر، 2003.

ويعتبر نشر هذا الكتاب لبنية جديدة للتعريف بتراث زكرياء النثري المغمور رغم أهميته، حيث من خلاله يمكن أن نتعرف على جانب آخر من عبقرية مفدي، وهي المتعلقة بالتأثر الجاد وذلك من خلال كتابه "تاريخ الصحافة العربية بالجزائر".

وتضمن الكتاب رصدًا لظهور الصحافة العربية بالجزائر، ومعركة الصحافة الإصلاحية، ونماذج بارزة من هذه الصحف ودورها مثل "الشهاب" لابن باديس و"المنهاج" لأبي اسحاق اطفيش، و"وادي ميزاب" لأبي اليقظان.

كما كتب مفدي مسرحية بعنوان الثورة الكبرى واشترك مع الأديب التونسي الهادي العبيدي في تأليف كتاب: الأدب العربي في الجزائر عبر التاريخ "أربعة أجزاء" وفي كتاب "انتم الناس أيها الشعراء"[2].

---

[1] الإلياذة، مفدي زكرياء، ،ص 27.

[2] المعاني القرآنية في إلياذة الجزائر لمفدي ز كرياء، صافية كساس، جامعة تيزي وزو، ص 227.

كما شارك الأديب التونسي الحبيب شيبوب في تأليف كتاب صلة الرحم الفكرية بين أقطار المغرب العربي الكبير، وبمشاركة المؤرخ التونسي محمد الصالح المهيدي كتب عن أقطاب الفكر المغربي على الصعيد العالمي، وغيرها من الأعمال المشتركة:

ومن أعماله النثرية: نحو مجتمع أفضل وست سنوات، في سجون فرنسا وحواء المغرب العربي الكبير في معركة التحرير، وقاموس المغرب العربي الكبير، واللهجات، وعوائق انبعاث القضية العربية، وقصية اليتيم في يوم العيد والجزائر بين الماضي والحاضر وأضواء على وادي ميزاب والكتاب الأبيض وتاريخ الفلكوري العربي ومائة يوم في المشرق العربي.

يحتوي على تسع وعشرين محاضرة بالكويت وقطر عن الثورة الجزائرية وتسع أمسيات شعرية لمصر ولبنان[1].

ثالثا: دواوينه الشعرية

أ. الدواوين الشعرية:

- اللهب المقدس.
- انطلاقة.
- من وحي الأطلس.
- تحت ظلال الزيتون.
- الخافق المعذب.
- إلياذة الجزائر.

إن هذا الحشد الهائل من الإنتاج الفكري التنوع، لم يصدنا منه للأسف الشديد سوى دواوينه المطبوعة المعروفة، اللهب المقدس، تحت ظلال الزيتون، من وحي الأطلس، إلياذة الجزائر.

[1] أبعاد الرمز الديني التاريخي عند مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر نموذجاً، الطالبتين فاطمة حاج الطاهر، حفيظة طوير، مذكرة التخرج لنيل شهادة الليسانس، جامعة الدكتور يحي فارس المدية، معهد اللّغات وعلوم الاتصال، دفعة 2009 ص 26 ص 27.

أما باقي الأعمال الأخرى فإنها ما تزال متناثرة في الصحف العربية أو في إذاعتها ولا سيما في أقطار المغرب العربي[1].

وكانت أمنية الشاعر أن يقدمها للطبع، ولكن حياة الانتقال وعدم الاستقرار النفسي والمادي، وما اكتنف حياته من صراعات ومشاكل، حالت دون تحقيق أمنيته الغالية، تلك أن شعره الذي كتبه ما بين 1925-1953" والذي يؤكد أن هذه الأعمال لم تزل في حاجة إلى جمع وتبويب وتصنيف، ما جاء في المقابلة التي أشرنا إليها سابقاً حيث يقول:

"وأملي أن أطبع كل هذا الإنتاج متى تخلصت منه مطاردة الفلاكة التي تلازم كل أدبي ومتى تيسرت الإمكانيات المادية والزمنية"[2].

وإن حالت الظروف دون أن يحقق مفدي زكرياء أمنيته تلك، فإن أبناء الجزائر اليوم أساتذة وباحثي وطلاب سيحققونها بإذن الله.

ب.**الأغراض الشعرية:**

يمكن القول إنّ اغلب شعر مفدي ينذرج، في إطار الشعر الوطني الصريح حيث سخر لهذه الوطنية معظم الأغراض بما فيها الذاتية، ونذكر من ذلك:

أولاً: الغزل

وهو عند مفدي يمكن إدراجه في مجال الغزل السياسي الشائع لدى كثير من الشعراء الجزائريين. هذا النوع من الشعر اتخذ عند مفدي شكلين يختلفان في درجة اقترابهما من الغزل الحقيقي (التغزل بالمرأة)،ويتخذان في الطابع العام الذي هو تغليب العنصر الوطني على الغزلي الوجداني،**فالشكل الأول** وهو التعبير عن حب الجزائر والتعلق الشديد بها والاستعداد للتضحية في سبيلها بتصويرها امرأة ملكت على الشاعر لبّه[3].

---

[1] مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة، محمد ناصر، ص50.

[2] مفدي زكرياء شاعر مجد الثورة، بلقاسم بن عبد الله، ص 116.

[3] شعر الثورة عند مفدي زكرياء، دراسة فنية تحليلية، يحي الشيخ صالح، ص 62-65.

الْحُـــبُّ أرَّقَـــني وَالْيَأْسُ أَفنَاني وَالْبِينُ ضَاعَفَ آلاَمِي وأَحْزَانِي
وَالرُّوحُ فِي حُبِّ"لَيْلَاى" اِسْتَحَالَ إِلى دَمْعٍ فَأَمْطَرَهُ شِعْرِي وَوِجْـــــدَانِي
أُسَاهِرُ النَّجْمَ وَالْأَكْوَانَ هَامِدَةٌ تُصْغِي أَرَنِينِي بِـــأَشْوَاقٍ وَتَحْنَانِ[1]

و"ليلي" هنا ذات أبعاد رمزية يترك فيها المجال للمتلقي كي يربطها بالواقع السيا سى لمفدى.ووطنيته,

الشكل الثاني وهو غزل حقيقي (غزل بالمرأة) لكنه مع ذلك ليس خالصًا لها بل هو ملتحم لوطنية الشاعر مع ما تحمله من عواطفنحو الأنثى.

ثانيًا: الرثاء

لمفدي قصائد كثيرة في غرض الرثاء، لكنها هي الأخرى من صميم الشعر الوطني الثوري.

هو ينظر إلى من يرثيهم على أنهم خالدون لم يموتوا، ونتيجة لذلك فهو يطلب منهم القيام بمهام الثورة وإنجازها في العالم الآخر، كما كانوا ينجزونها في حياتهم الدنيا من رواية أخبارها لمن في ذلك العالم وجلب الدعم لها منهم، فالشهيد أحمد زبانة الذي دشن به الاستعمار مقصلة سجن بربروس يقول له الشاعر:

يَازَبَانَا أَبْلِغ رِفَاقَكَ عَنَـــا فِي السَّمَاواتِ قَدْ حَفِظَنَا العُهُودَا
وَارْوَعْنَّ ثَوْرَةَ الْجَزَائِرِ للأفَـــــلَاكَ والكَائِنَاتِ ذِكْـــراً مَجِيدًا *1

وللشّهيد مصطفى فروخ، الذي توفى محترقا في حادث طائرة وهو في طريقه إلى " الصين الشعبية لتمثيل الجزائر بها:

كُنْ سَفِيرًا حَيْثُمَا شِئْتَ تَجِدُ فِي السَّما أَوْ فِي الثَّرى أَنْصَارُنَا
وَابْنٌ فِي عُلْيَاكَ لِلشَّعْبِ كَمَا كُنْتَ تِبْنِي مُنْذُ حِينٍ هَا هُنَا
وَارْوِ لِلْأَفْلَاكِ عَنَا قِصَّـــةٌ كُنتَ مِنْ أبـــْطالِهَا فِي حَرْبِهَا

[1] شعراء الجزائر في العصر الحاضر، الهادي السنوسي الزاهري، مفدي زكرياء، ج1 ، ص 152.

*1 أول شهيد أعدم بسجن بربروس بتاريخ ليلة 18 جويلية 1956.

وَاحْكِ عَنْ ثَوْرَةِ شَعْبٍ مَارِدٍ عَبْقَرِيٍّ يَتَحَـــدَّى اِلْـــــزَمَنَا[1]

ومفدي في رثائه تسيطر عليه عاطفة هي مزيج من حزن الفراق ولوعته، وشيء من الغبطة والرضى، بدل التفجع والتحسر في الرثاء التقليدي أن موت أولئك الشهداء شيء إيجابي بالنسبة للوطن، ففيه تعجيل للحرية، وثمن لها.

وفي النهاية فهو يعبر في غرض الرثاء عن الموقف الوطني الثوري مثلما عهدناه في باقي الأغراض.

ثالثا: المدح

المدح العادي ومعظمه تمثيل بدافع الصداقة والتقدير، قد مال إليه الشاعر في فترة ما بعد استقلال الجزائر، ممثلا في مدائحه للرئيس التونسي لحبيب بورقيبة وللملك المغربي، عندما كان يعيش في تونس ثم المغرب. وهو لا يصنفه في باب المدح التقليدي وإنما يراه تقديراً للمسؤولين العرب على استقالتهم وكفاحهم في سبيل شعوبهم:

وَقَالُو مَدَحْتُ الْمَالِكِينَ أَجَبْتَهُـــم هَلِ الْمَدْحُ فِي غَيْرِالمَنَاجيدِ مِنْ شَأْنِي
إِذَا مَا اِسْتَقَامَ الْمَالِكُونَ مَدَحْتُهُمْ وَصُغْتَ مَدِيحِي مِنْ قَوَاعِدَ إِيمَـــانِي
وَلَوْلَا كِفَاحً مَـــا مَـــدِحْتِ مُحَمَّدًا وَلَا جِئْتِ بالآيات فِي الْحُسْنِ الثَّانِي

- **التمجيد:**

وهو مدح يطغى عليه الطابع الثوري لأن الشاعر فيه لا يولي اهتماماً إلا للقضية الوطنية فهيمقياسه الوحيد، لم يعكس عاطفته الخاصة، و لم يتحدث باسمه، وإنما باسم الجزائر وثورتها.

ولعل الشاعر نفسه يفرق بين المدح والتمجيد، ولا يسمى هذا النوع الأخير مدحًا، فعند إنشاده قصيدة في تمجيد توفيق المدني يقول:

إِيهٍ تَوْفِـــيقَ فِيكَ أَخلَـــصْتَ شِعْـــــرًا قَدِّيسًا كَالْوَحْيِ ظَنُّوهُ سِحْـــــرًا

[1] اللهب المقدس، مفدي زكرياء، ص 322.

أَنَا إِنْ كُــنْتَ فِي الْقَرِيضِ أَمِــيرًا أَبَدًا فِي الْمَدِيحِ مَا قُلْتَ شِعْرًا[1]

وأيضا النوع جذورٌ عند مفدي منذ بداية عهده بالشعر فأول قصيدة في تحية عبد الكريم الخطابي زعيم ثورة الريف المشهور بالمغرب.

وكعادة مفدي في هذا النوع من المديح يركز على الناحية الوطنية، فيعرض لشعب الجزائر وما يعيش فيه من مأساة:

وَاصْرُخْفَتَى النَّهْضَتَيْنِ الْيَوْمَ فِي وَطَنٍ جَارَ الزَّمانُ بِهِ يا حَادَي الْوَطَنِ
اِرْفَعْ إِلَى رَفْرَفَ الْعَلْيَاءُ أَلْــوِيَةً أَضْحَتْ هُنَاكَ لِمَوْتِي مَوْضِعِ الْكَفَنِ
وَسِرْ بِمَوْكِبِ هَذَا الشَّعْبِ مُتَئِــدًا لِيَقْفِكَ الشَّعْبُ وِثابًا عَلَــى سُــــنَــنِ
شَعْبُ الْجــزَائِرِ وَالْأَيَّــــامُ شَاهِدَةٌ جُــزْءٌ مِنَ الْخُلْدِ لَوْلَا عَادِي الْمِحَنِ

وهكذا يتضح أن المدح عند مفدي في مرحلة الثورة كان يشبه إلى حد بعيد مدحه قبل الثورة فهو تمجيد للوطنيين وتخليد لأعمالهم وهو النوع الذي يصدق عليه أنه "الذكر الجميل" كما يسميه الشاعر.

رابعاً: الحكمة

ليس لمفدي قصائد في الحكمة، ولا حتى مقطوعات خاصة من قصائد في أغراض أخرى، وإذا نظرنا إلى مجمل إنتاجه يتبين لنا أن حكمه تنحصر في مجال الثورة، وتعبر عن فلسفة الشاعر ووجهات نظره في هذا الميدان.

وفي سنة 1928 ينظم الشاعر في الرثاء ويمكن الوقوف عند قصيدته، والتي ذهب فيها إلى أنّ فناء الجسد ليس هو الموت، بل الموت الحقيقي هو عدم الثورة والرضوخ للمهانة والذل، والميت هو من يرى شرف أمته يداس ولايثور:

[1] شعر الثورة عند مفدي زكرياء، يحي الشيخ صالح، ص 75- 76.

عُمْرُكَ اللهُ لَيْسَ ذَاكَبِمَيِّتٍ إِنَّمَا الْمَيتُ مَنْ يَعِيشُ ذَلِيلَا
إِنَّمَا الْمَيِّتُمَنْ يَرَى شَرَفَ الْأُمَّةِ نَهَبًا وَلَا يُزَالُ خَمُــولا[1]

إن الشعب الذي لا يتحصن بلغته القومية لا يمكن أن ينال الرفعة والكرامة فلا تصيب له إلا الذل والمهانة، وأكبر خطب ينال أي شعب هو عقوق بنية له:

ذُلُّ الشَّعْبِ لَمْ يَتَّخِذِ لُغَةَ الأجْدَادِ حِصْنًا وَرَامَ عَنْهَا اِنْفِصَالًا
وَعُقُوقَ البَنِينِ أَعظَمُ خَــطْبٍ يُرْهِقُ الشَّعْبَ ذُلَّةً وَنَكَالًا[2]

خامساً: الطبيعة

إن للطبيعة عند مفدي مظهراً خاصًا، لأنها تقوم فيه بدور خطير في مجال الثورة، ونجدها مرسومة في أغلب قصائد مفدي، ممّا يجعلها تشكل عنده أكثر من غرض شعري يقوم على التغني بالجمال والسحر في الطبيعة:

وَفِي صَحْرَائِنَا جَنَّاتُ عَدْنٍ بِهَا تَنْسَابُ ثَرْوَتُنَا اِنْسِيابَا
وَفِي صَحْرَائِنَا الْكُبْرَى كُنُوز نُطَارِدُ عَنْ مَوَاقِعِهَا الغَــــرَابَا
وَفِي وَاحَاتِنَا ظِـــــلٌّ ظَلِيلٌ تَفُورُ بِهِ نَوَاعِرُهَاحـــــبَابَا
يُدْرِلِي فِي الْغَدِيرِ الحُلْوِ سَاقَا وَبِالْكَفَّيْنِ يَغْتَرِفُ الشَّرَابَا
وَيَسْتَلْقِي بِحافَّتِهِ يُـــــنَاجِي لَهُ الْعَرْشَ يَسْأَلُهُ مُتَابَا[3]
هَذِي الْجِبَالُ الشَّاهِقَاتُ، شوَاهِــدُ سخِّرَت بِمَنْ مَسَخَ الحَقَائِقَ وَادَّعَــى
سَل(جُرْجُرَا)*[1]تُنْبِئُكَ عَنْ غَضَبَاتِهَا وَاسْتَفَتْ (شِلِيَّا)*[2]لَحْظَةً و(شَلْــعَلْعَا)

---

[1] اللهب المقدس، مفدي زكرياء، ص 322.

[2] شعر الثورة عند مفدي زكرياء، يحي الشيخ صالح، ص78.

[3] اللهب المقدس، مفدي زكرياء، ص 35 وما بعدها.

*[1] جرجرة: سلسلة جبال شاهقة ببلاد (القبائل الكبرى) من مجموعة الأطلس الجبار.

*2سيليا: أعلى جبل بسلسلة الأطلس الممتدة على الأوراس.

*3وارشينيس: جبل بالجهة الغربية.

وَاِخْشَعْ بـــــ (وَارْشِينِيسَ)*[3]إِنَّ تُرَابَهَا مَا انْفَكَ (لِلْجُنْدِ الْمُعَطَّرَةِ) مَصْرَعَا

كَرّْتَ تِلِمْسَانَ الضَّلِيعَة ضَلْعَه ورهى (بَصَبْرَة) صَبْرَه فَتُوَزِعَا[1]

هكذا يحيل الشاعر ناظريه في طبيعة الجزائر وصحرائها الممتدة الفسيحة، ويحلق في أجوائها متنقلا بين ربوعها من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى قرية وكأنه على بساط سليمان.

وَقَفَ بِي عَلَى رَوْضِ (الوَرِيطِ)*[1]وَنَبْعِهِ وَمُنْحَدِرِ الشَّلاَّلِ، اسْتَلْهَمَالنَّهْرَا

وَفِي قَرْيَةٍ (الْعَياد) لَا تَسْرِع الْخُطَى فَتُرْبَتُهَا تُوحِي الْقَدَاسَةَ والطُهْرَا[2]

[1]المصدر السابق، ص 57.

*1 الوريط: أجمل وأروع منظر ببلدة تلمسان.

[2]المصدر السابق، ص262.

الفصل الثاني:

تجليات الثقافة الدينية في شعر مفدي زكرياء

الفصل الثاني: تجليات الثقافة الدينية في شعر مفدي زكرياء

المبحث الأول: التناص الديني.

المبحث الثاني: توظيف الشخصيات التراثية الإسلامية.

المبحث الثالث: توظيف المصطلح الديني.

المبحث الأول: التناص الديني

إن طبيعة ثقافة مفدي زكرياء القائمة على حفظ كتاب الله، وإطّلاعه على السيرة النبوية وسير الصحابة جعلت من شعره مرتعًا لأنواع متعدّدة من التناص نذكر منها:

أوّلا : التّناص مع القرآن الكريم:

يعتبر الشعر كغيره من الأجناس الأدبية محصلة نصوص أخرى قديمة كانت أو حديثة، لأن المبدع لا يحقق إنتاجية ناضجة إلا من خلال تردده على تراثه وتاريخه، فالنصوص الحديثة هي نتاج تراكمات مختلفة لدى المبدع.

ونحن نتفحص الخطاب الإلياذي تعترضنا نماذج من الصّور الشّعرية المستمدة من القرآن الكريم، حيث يهيمن التناصّ الديني على مجموعة من نصوص الشاعر محققا تداخلا امتزجت فيه الرؤى الدينية مع نصوص الشاعر في سياق رؤية جديدة، يلعب فيها الاقتباس دوره في تحقيق جمال الصياغة وعذوبتها ووضوحها، كاشفا عن ثقافة الشاعر الدينية ومقدرته الأدبية التي أضفت على المعاني جمالا وروعة وخصبًا غذى كثافة الإيحاء وتماسك الأفكار وجزالتها[1].

إن الصراع الذي كان قائما بين الشعب الجزائري و الاستعمار الفرنسي والمعاناة التي ألمت بهذا البلد جعلت الشاعر يلجأ إلى توظيف تراكيب ذات فاعلية لتحريك نفوس الشعوب، وكان خير سبيل هو دستور الأمة وكرامتها وحياتها الأزلية كتاب الله المقدس القرآن الكريم. فمزاوجة مفدي أبياته الشعرية

[1] شعرية السرد والتناص في إلياذة الجزائر- خميس رضا- منشورات دار الأديب، د.ط، د،ت، ص56.

بالآيات القرآنية هو قناعته الخاصة و إيمانه بأن النصر من عند الله من جهة، وليؤكّد للشعب ضرورة تمسّكه بدينه من جهة أخرى حيث يقول[1]:

وَ يَلْتَفُّ سَاقٌ بِسَاقٍ، فَنَصْبُوا فَيَغْمُرُنَا مُلْتَقَى الفِكْرِ نَصْحًا[2]

وهذا البيت تناص مع قوله تعالى : {وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ}[3].

فعلى مستوى البناء يكاد النص يكون نفسه لفظا ومعنى، ولقد وظّفه الشاعر هنا ليؤكّد أنه مهما استعصت الأمور، وضاقت الدنيا فإن مرجع الناس إلى الملتقى الفكري، والذي هو مفتاح كل ضياع وجواب كل سؤال، كما هو حال العباد فمهما عملوا في الحياة الدنيا من خير أو شر فمرجعهم إلى الله عزّ وجل.

وكثيرة هي المواضع التي وظّف فيها شاعر الثورة القرآن الكريم ومنها قوله:

وَ عَرْقُ الأَصَالَةِ طَـــهَّرَ طَبْعِي وَ نُورُ الهِدَايَةِ أَذْهَب رِجْسِي[4]

حيثُ تناص فيه مع قوله تعالى: { إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا }[5]. لقد أنزل الله هذه الآية في أهل البيت الذين لهم الشرف العريق و النسب العظيم، والشاعر رأى أنه هو أيضًا عريق النسب، فتلاحم النص الأصلي مع نص الشاعر ليكون المعنى الجديد.

---

[1] أبعاد الرمز الديني الثاريخي عند مفدي زكرياء إلياذة الجزائر نمودجًا، فاطمة بن حاج الطاهر وحفيظة طوير، مذكرة تخرّج لنيل شهادة الليسانس، جامعة المدية 2009.

[2] إلياذة الجزائر، مفدي زكرياء، ص10.

[3] سورة القيامة الآية (29-30).

[4] إلياذة الجزائر، مفدي زكرياء، ص19.

[5] سورة الأحزاب الآية 33.

ومن الاقتباس الذي جاء عفو الخاطر، ويتواصل محسوباً ومكيفًا وفق الرؤية القرآنية ما نلمسه في قوله:

وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا فَطَارَ بِهَا العِلْم فَوْقَ الخَيَالِ...![1]

وأيضا قوله:

وزلْزِلَـــــــتِ الأرْضُ زِلْزَالَهَا وَضَجَّ لِغَاصِبِكَ النِّيرَانُ[2]

إن المتأمل في هذين الشاهدين يلفت انتباهه المستند اللّغوي الذي يجد جذوره ومصادره في الكتاب المقدّس القرآن الكريم، يقول تعالى: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا }.[3]

ومن المواضع المستندة إلى النص القرآني قوله:

تَأَذَنَ رَبُّكَ لَيْلَةَ قَدْرٍ وَأَلْقَى السِّتَارَ عَلَى أَلْفِ شَهْرٍ[4]

حيث نجد أن مصدره من قوله تعالى: { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ}[5].

فهنا تحيل ليلة القدر إلى الفاتح من نوفمبر 1954 في سياق بياني، يعبئ ويحفز الدلالة بتوصيل المعنى وتحريك الوعي بأهمية الحدث، ولاشك أن هذه النزعة التعبيرية التي تجد جذورها في الفكر الديني العقائدي، تجذب القارئ وتدفعه إلى التّتبع و التأمل، فيتحقّق بذلك مقصد الخطاب الشعري

[1] إلياذة الجزائر ، ص 20.
[2] المصدر نفسه،ص 102.
[3] سورة الزلزلة، الآية (01،02).
[4] إلياذة الجزائر، مفدي زكرياء، ص 53.
[5] سورة القدر الآيات 01-02-03.

المطعم بجمالية الطرح و المفعم بعمق الإيحاء الذي يمثله حدث ثورة أوّل نوفمبر من منظور القدسية و الإجلال.[1]

وتجدر الإشارة إلى أن المواضع التناصيّة لخطاب مفدي مع القرآن كثيرة قد يضيق المقام بحصرها.

ثانيا: التناص مع الحديث النبوي الشّريف

إنّ الحديث النبوي الشريف هو شارح القرآن الكريم، وثاني منهج للمسلمين، ولهذا فكثرة الأخذ منه ليس أمرا غريبا، وإنّما نرى ذوبان الحديث النبوي في النص دليلا على براعة (المبدع)، واستحضاره لثقافته الدينية وبعث الحركة في الملتقى حتى يسحضر هو الآخر ثقافته الإسلامية، وبالرجوع إلى إلياذة مفدي زكرياء، نلمس مدى ذوبان النص الغالب في النص المنتج بقوله:

أتُوبُ إِلَيْــكَ بِإِلْيَاذَتِــي عَسَاهَا تُكَفِرُ كُــلَّ ذُنُوبِــي
عَصَيْتُكَ عِلْمًا بِأَنَّكَ تَغْفِرُ عَلَى الْمُسْرَفِينَ فَهَانَتَ خُطُوبِي[2]

لقد أقرّ الشاعر بذنوبه، وهو يرجو رحمة الله وعفوه ومغفرته لأن الله غفور رحيم، وهذا تناص مع نص الحديث، عن أبي هريرة رضي الله عنه: **قال رسول الله صلى الله عليه وسلم** :{ وَالّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللّهَ فَيَغْفِرُ لَهُم}[3]

[1] شعرية السرد والتناص، في إلياذة الجزائر، خميس رضا، ص 59.
[2] إلياذة الجزائر، مفدي زكرياء، ص98.
[3] مختصر صحيح مسلم للحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري، ط2، دار بن حزم للطباعة و النشر و التوزيع بيروت لبنان 1422 ه ، 2001، ص 719.

إن الله عز وجل يعلم أن عباده يُذنبون، لهذا فهو يغفر لهم لأنهم لو لم يذنبوا لما كان عقاب، ولما كانت التوبة إلى الله والاستغفار له، ولما كان الشاعر على دراية بهذا فإن ملاذه كان الرجوع إلى الله والاستغفار له إن الله واسع وَسِعت رحمته كل شيء.

يقول مفدي زكرياء في البيت التاسع من المقطوعة السابعة و الثلاثين:

وَكَمْ عَاهَدُوكَ وَكَمْ أَخْلَفُوا وَكُنْتَ بِمَا يُضْمِرُونَ بَصِيرَا[1]

"الوفاء بالعهد" صفة المؤمنين ودعامة الثقة بين الأفراد والجماعات، وأهم عوامل الاستقرار والسلام، وإذا افتقد الإنسان لهذه الصّفة أصبحت فيه خصلة من خصال المنافق، وهي اختلاف العهد، وهو ما تكلّم عنه مفدي زكرياء في صدر البيت الشعري، والواضح أنه استقى قوله (وكم عاهدوك وكم أخلفوا) من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم عن المنافقين الذين يقول فيهم: **{"آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ[2] }.**

يقول مفدي زكرياء في البيت العاشر من المقطوعة الثالثة و الأربعين:

وَقَالَ الّذي خَلَّدُو شِعْرَهُ فِدَاءُ الجَزَائِرِ رُوحِي وَمَالِي[3]

يخبرنا مفدي زكرياء في هذا البيت أن حبّ الشعب الجزائري لوطنهم الجزائر جعلهم يقدّمون أرواحهم وأموالهم فداءا لها. ويبدو أن الشاعر قد تأثر في قوله هذا بحديث الرسول صلى الله عليه وسلّم الذي يسأل فيه عن أفضل النّاس في الجهاد فيقول: **{ مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللّهِ}[4]**

---

[1] المصدر السابق ، ص 55.

[2] الجامع الصحيح المختصر، محمد بن اسماعيل، أبو عبد الله البخاري الجعفري، دار ابن كثير اليمامة، بيروت، ج1، ط3، 1987، ص13.

[3] إلياذة الجزائر، مفدي زكرياء، ص61.

[4] الجامع الصحيح المختصر، محمد بن اسماعيل، أبو عبد الله البخاري الجعفري، دار ابن كثير اليمامة، بيروت، ج2، ط3، 1987، ص765.

يقول مفدي زكرياء في البيت الثاني من المقطوعة الثالثة و السّبعين:

مَسَاجِدُ لِلْهُدَى فِي كُلِّ فَجٍّ تُثِيرُ السَّبِيلَ لِأَجْيَالِنَا[1]

يتحدّث الشاعر في هذا البيت عن الدور الكبير الذي تؤديه المساجد في إرشاد الناس إلى طريق الهدى، وإنارة السبيل لهم وهذا ما يتداخل مضمونا مع حديث **الرسول صلى الله عليه وسلّم** الذي يقول فيه:

{مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرّحْمَةُ وَحَفّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ}[2].

-يقول مفدي زكرياء في البيت العاشر من المقطوعة السادسة عشر:

وَيَحْفَظُ مِيزَابُ لَوْحِ الجَلاَ لِ فَتُصْبِحُ مِيزَابُ فِي اللَّوْحِ حَرْفًا[3]

هذا البيت يتناص مع الحديث الشريف الذي يتحدث فيه الرسول صلى الله عليه وسلم عن اللّوح المحفوظ، وأنّه قد كتب فيه كل شيء من خلق الكون إلى قيام الساعة، وقد روي عن **النبي صلى الله عليه وسلم** أنه قال: "إِنَّ اللهَ خَلَقَ لَوْحًا مَحْفُوظًا مِنْ ذُرّةٍ، صَفَحَاتُها من يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، قَلَمُهُ نُورٌ، للهِ فِيهِ فِي كُلِ يَوْمٍ سِتّونَ وثَلاَثُمَائَةَ لَحظَةٍ، يَخلقُ، ويَرزقُ، ويُميتُ، ويُحيِي، ويُعزُّ، ويُذلُ، ويفعلُ مَا يَشَاءُ[4]".

- يقول مفدي زكرياء من البيت الرابع من المقطوعة السّادسة والتسعين:

---

[1] المرجع السابق، ص91.

[2] الجامع الصحيح المختصر، محمد بن اسماعيل، أبو عبد الله البخاري الجعفري، دار ابن كثير اليمامة، بيروت، ج2، ط3، 1987، ص50

[3] إلياذة الجزائر، مفدي زكرياء ص 31.

[4] الجامع الصحيح المختصر، محمد بن اسماعيل، أبو عبد الله البخاري الجعفري، ص991

وَلَوْلَا صِفَاتُكَ رَبٌّ رَحِيمٌ لَضَاقَتْ عَلَيَّ دُرُوبِ[1]

يتضرع الشاعر في هذا البيت الشّعري لله سبحانه وتعالى ويتوب إليه، وهو ما يتداخل مع **قوله صلّى الله عليه وسلّم**: { التّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ}[2].فهي توبة خالصة، وهنا اختلاف و تباين بين اللفظ والمعنى.

ويتجلّى من خلال النّماذج التي استعرضناها ذلك الاستثمار الناتج للثقافة الإسلامية عند شاعرنا، حيث طفت آيات الذكر الحكيم على سطح أشعاره لتزيد من عمق الخطاب وحيويته، وألفاظه فتنوع من دلالاته، وإن كانت أكبر دلالاته تنصب في الغضب والأمل معا.

[1] إلياذة الجزائر، ص114.

[2] الجامع الصحيح المختصر، محمد بن اسماعيل، أبو عبد الله البخاري الجعفري، ص975

المبحث الثاني: توظيف الشخصيات التراثية الإسلامية

إنّ توظيف الشّخصيات الدّينية في الشّعر العربي الحديث كان ميزة بارزة منذ طلائعه بعد النّهضة سواء تعلّق بشعراء المشرق العربي أمثال أحمد شوقي وحافظ إبراهيم أو غيرهما من شعراء المهجر، وهي صورة من صور استعادة التّراث بشكل عام بل إعادة النّبض له، فاستعادة الشّخصيات الدّينية في الشّعر الحديث هو عمل فني أعمق من مجرد التّعبير في المناسبات ونحوها، بل إنّه محاولة لربط اللاّحق برموز النّص السّابق.

وحين، ننظر إلى التّجارب الشّعرية نجد أنّه تشكلّ تراث فني كبير في التّعامل مع الشّخصيات الدّينية الإسلامية.[1]

فشعراؤنا كانوا هم الأقراب إلى هذا التّراث المتجذّر في أعماقهم فأدركوا أهمية استعادته في أشعارهم خاصة ممن يحمل عاتقه قضية.

فالارتباطات بهذا النّوع من الشّخصيات هو ارتباط بالتّراث الدّيني لتصبح العلاقة بينه وبين الشّاعر علاقة استيعاب وتفهم وإدراك واع للمعنى الإنساني والتّاريخي للتراث وبتوظيفها داخل النّص الشّعري تمنحها المواقف المتقاطعة قوة الدّيمومة والخلود.

والشّاعر مفدي زكريا قد تفاعل بشكل حيوي مع الشّخصيات الدّينية في إلياذته لدرجة يصعب حصرها وهذا لكثرتها من جهة وتداخلها مع التّاريخ من جهة أخرى إذ يمكن اعتبارها شخصيات تاريخية بسبب ارتباطها بالسّياق العام للتّاريخ العربي الإسلامي، لكنّ تنوعها وتداخلها يكمن في مكانتها ودرجة قداستها.

---

[1] - ينظر:التناص الديني في إلياذة الجزائر، لعزالي صليحة، مذكرة تخرج لنيل شهادة ماستر في الأدب العربي،2011-2012، جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس، ص 83، نقلا عن علي عنتري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي، دار الفكر العربي، د.ط، 1997، ص76.

ويمكن أن نصنف الشّخصيات الدّينية الّتي وردت في إلياذة الجزائر إلى ثلاث مجموعات رئيسية:

*شخصيات الأنبياء

*شخصيات مقدّسة

*شخصيات منبوذة[1]

وشخصية الأنبياء عليهم السّلام هي أكثر شخصيات التّراث الدّيني شيوعا في إلياذة الجزائر.

ومن الشّخصيات الّتي استحضرها مفدي زكريا في إلياذة الجزائر، نذكر شخصية موسى عليه السّلام ومحمد صلى الله عليه وسلم عيسى عليه السّلام.

يقول مفدي زكريا في البيت الثالث من المقطوعات الواحدة والأربعين:

وَحَدَّادُ فِي السُّوقِ أَلْقَى عَصَاهُ وَأَعْلَنَهَا فِي الذُّرى البِطَاحُ[2]

يتحدث الشّاعر في هذا البيت عن الشّيخ الحداد قائد المقاومة الشّعبية الذّي أعلن الحرب على الاستعمار وعمره يتجاوز الثّمانين.

إنّ مفدي زكريا يصوّر حماسة الحداد إلى الثّورة رغم طعونه في السّن وإعلانه خوضها أمام الملأ في السّوق دون خوف أو تردد.

ويبدو أنّ قصة سيدنا موس عليه السّلام في أطوارها المختلفة كما جاءت في القرآن الكريم هي أكثر إلحاحا على ذاكرة الشّاعر من القصص الأخرى، كما أن الشاعر استطاع أن يستغلّ قصّة

[1] - المرجع السابق، ص 84.

[2] - إلياذة الجزائر، مفدي زكريا، ، ص59.

سيدنا موسى عليه السّلام استغلالا فنيا، فيشبّه إلقاء الحداد لعصاه في السّوق بالإلقاء موسى عليه السّلام لعصاه تارة لشقّ البحر أمام أصحابه وتارة أخرى لتتلقف سحر سحرة فرعون.

وبالعودة إلى الأنبياء الذّين احتلّوا مساحة هامة في إلياذة الجزائر إلى جانب سيدنا موسى عليه السّلام نذكر شخصية النّبي عيسى عليه السّلام.

وقد وظّفها في قوله في البيت

التّاسع من المقطوعات الواحدة والستين:

وَاَغْضَبَ عِيسَى وَرَاعَ الصّلِيبَ فَنَاشَدَنَّا أَنْ نَرِدَ المَثِيلاَ[1]

إنّ هذا البيت الشّعري يتداخل ويتناص مع قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَ مَا صَلَّبُوهُ وَلَكِنْ شُبِهَ لَهُمْ وَإِنَّ الذّينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍ مِنْهُمْ مَالَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ إِتبَاعُ الظَّنِ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِنًّا﴾[2].

وإضافة إلى هذه الشّخصيات تأتي شخصية أفضل خلق الله محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد ذكره مفدي زكريا في البيت الأول من المقطوعة السّادسة والسّتون:

أُنَاجِيكَ يَا مُصْطَفَى فِي سَمَاكَ وَيَوْمَ عَرَّجْتَ تَشُقُ سَمَاكَ[3]

وقد استقى الشاعر قوله "عرجت" من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿سبحان الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنْ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى الّذِي بَارَكْنا حَولَهُ لِنُرِيه مِنْ آيَاتِنَا إِنّهُ هُوَ السَمِيعُ البَصِيرُ﴾[4]

---

[1] - إلياذة الجزائر، مفدي زكريا ، ص79.

[2] - سورة النساء، الآية 157.

[3] - إلياذة الجزائر ،مفدي زكريا ، ص84.

[4] - سورة الإسراء، الآية 01.

وقد كان ذلك في البيت الأول من المقطوعة الرّابعة والعشرين:

أُولَئِكَ آبَاؤُنَا مُنْذُ عِيسَى وَكَانَ مُحَمَّدٌ صِهْرًا لِعِيسَى[1]

فالدّلالة واضحة هنا، إذ يشير إلى فكرة التّسامح الدّيني خاصة في المنظور الإسلامي وإلى فكرة التّقارب بين الدّيانتين المسيحية والإسلام وتقاطعهما في بعض القيم.

الشخصيات المقدسة:

على رأس هذه الشّخصيات يقف الرّجلان الصّالحان هاروت وماروت وقد وظّفهما مفدي زكريا في البيت الثّاني من المقطوعة الثّانية وذلك في قوله:

وَيّا بَابِلَ السّحْرِ مِنْ وَحْيِهَا تَلَقَبَ هَارُوتُ بِالسَّاحِرِ[2]

ففي هذا البيت إشارة إلى قوله تعالى:﴿وَاتَبَعُوا مَا تَتْلُو الشّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلّمُونَ النَّاسّ السّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى المَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾[3].

لقد ورد في كتاب التّفسير لابن كثير أنّ المعنّي بالملكين هو جبريل وميكائيل عليهما السّلام، لأنّ سحرة اليهود كانوا يزعمون أنّ الله أنزل السّحر على لسان جيريل وميكائيل إلى سليمان بن داود، فأكذبهم الله.

ولقد كان الرّجلان الصّالحان هاروت وماروت يعلّمان النّاس السّحر وما أنزل عليهما ببابل مع أنّهما كانا إذا علّما أحدا حذّراه من الإيذاء به، وقالا له إنّما هو امتحان للنّاس فلا تكفر بالله

[1] - المصدر نفسه، ص42.
[2] - المصدر نفسه، ص20.
[3] - سورة البقرة، الآية 102.

بسببه، فكان النّاس يتعلّمون منهما ما يفرّقون به بين الزّوجين وما هو بمؤذيين به من أحد إلا بإذن الله.

ومن الشّخصيات المقدّسة أيضا الواردة في إلياذة الجزائر نذكر شخصية مريم عليها السّلام وحادثة هزّها النّخل وتساقط الرّطب عليها أثناء ولادتها للمسيح.

وكما راح مفدي زكريا يوظف الشخصيات المقدسة وشخصيات الأنبياء فإن ذلك لم يمنعه من أن يستعين بشخصيات منبوذة والمقصود بها تلك التي ارتكبت خطيئة فحلت عليها اللعنة لتمردها على إرادة الله وعلى رأس هذه القائمة شخصية هامان (وزير فرعون) وقد ذكرها الشاعر في قوله في البيت الثاني من المقطوعة السادسة عشر:

فَيَخْجَلُ هَامَانُ مِنْ صَرْحِهِ وَيَعْجَزُ أَنْ يَبْلُغَ الْمُشْتَهَى[1]

مفدي زكريا أخذ شخصية هامان من القرآن الكريم وذلك في قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاّ هَامَانُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَعَلّي أَبْلُغَ ٱلأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنَّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْ نَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنْ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ.[2]﴾

يخبرنا الله عز وجل في هذه الآية عن تكذيب فرعون لموسى عليه السلام بأن أمر وزيره (هامان) أن يبني له صرحا وهو القصر العالي والمنيف الشاهق.

ومن الشخصيات المنبوذة أيضا قوم عاد وقد خصّها الشاعر بالحديث ف البيت التاسع من المقطوعات التاسعة عشر:

[1] - إلياذة الجزائر، مفدي زكريا ، ص34.

[2] - سورة غافر، الآية 36-37.

وّعَنْ قِصَةِ المَجْدِ مِنْ عَهْدِ نُوحٍ وَهَلْ إِرَمُ هِيَ ذَاتُ العِمَـــــادِ[1]

فالشاعر هنا اقتبس لفظ (عاد) في بيته الشعري من القرآن الكريم وذلك في قوله عز وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذاتِ الْعِمَادِ﴾[2] فعاد الأولى هم أولاد عاد ابن ارم بن عوص بن سام بن نوح قاله ابن إسحاق وهؤلاء القوم هم الذين بعث الله فيهم رسوله (هود) عليه السلام فكذبوه وخالفوه فأنجاه الله.[3]

وأخيرا لم يشأ مفدي زكريا أن ينهي قائمة توظيف الشخصيات المنبوذة دون أن يذكر شخصية إبليس والتي تؤدي دورا كبيرا في ارتكاب الخطيئة والتمرد وذلك في قوله في البيت السادس من المقطوعة الرابعة والتسعين:

وَلاَئِمَّ يَخْجَلُ إِبْلِيسُ مِنْهَـــــا وَيُرَشِحُ زَقُومَهَا بِالهُنَـــــاتِ[4]

لقد جاء توظيف الشاعر للشخصيات الدينية بشكل فعال بحيث انصهر في السّياق الشّعري واتحدّ بمضمونه متوقفا على براعة الشّاعر وقدرته على استحضار النّص ودمجه ليضفي بأبعاده الثّقافية والمعنوية الرّاسبة في أعماق الشّاعر والمتلقي معا فيجعل منه أفقا للتواصل والاندماج ويزيد بذلك في النشاط الإيحائي للتركيب والصور.

[1] - إلياذة الجزائر، مفدي زكريا ، ص37.
[2] سورة الفجر، الآية 06-07.
[3] - ابن كثير، تفسير القرآن،ج1،ص 255.
[4] - إلياذة الجزائر، مفدي زكريا ، ص112.

المبحث الثالث : توظيف المصطلح الديني

القرآن الكريم هو المصدر الأوّل والأساسي الذي نهل منه مفدي زكرياء، حيث استلهم من آياته الكريمات مختلف الصور واستخرج من معانيه المؤثرة ألوان التعابير الشعرية[1] ، فهو يعتصر ما في المفردة القرآنية من دلالات نفسية بعيدة، قد لا يدرك أبعادها سوى الملتقى الحافظ للقرآن الكريم[2].

ويمكن أن نرجع إلى وعيه الديني المبكر، وإدراكه وقناعته التامة، بأن لغته العربية غنيّة لا نظير لها من الناحية الفنيّة والبلاغيّة، فهي لغة قد ملأت بشتّى أنواع الإيحاءات وأنّ صوره بليغة ودقيقة ومؤثّرة في النفوس قبل القلوب، وهي الأداة المناسبة والمحبّبة والمفضّلة لتأدية أسلوبه القوي، بالإضافة أن آيات القرآن الكريم واضحة ، لذا جاء القرآن يعبر بالصور المحسّسة المتخلّية عن المعنى الذهني.

ومن أبرز الصور التي استلهم منها مفدي زكرياء، الآية القرآنية التي تعبر عن غربتة وحنينه إلى بيئته الأصلية "الصحراء" وطبيعتها الفريدة المملوءة بالذكريات فيقول:

وفي صَحْرَائِنَا الكُبْرَى كُنُوزُ ... نُطَارِدُ عَنْ مَوَاقِعِهَا الغُرَابَا
وفي صَحْرَائنَا ، تَبْرٌ ، وتَمْرٌ ... كُلاَ الذَّهَبين رَاقَ بِهَا و طَابَا
وهَزّتْ مَرْيَم العـــــذْرَآ نَخْلًا ... فأسْقَطَت الفَلُوذَجَ و الرِضَابَا[3]

[1] الأقدام، جاشتويا شلال، ترجمة غالب هلسا، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1980ص29.
[2] مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة،محمد ناصر:ص113
[3] اللهب المقدس،مفدي زكرياء،ص35وما بعدها

هذه الظاهرة اقتبسها مفدي زكرياء من القرآن الكريم،عند قوله تعالى: (وَهُزِّ إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسْقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا)[1]

إذ مثّل مفدي زكرياء الصورة دون أن يصوغها بما يلائم وضعه الحزين، لأن الصورة في الآية الكريمة توحي بالأمن والاطمئنان، وظلّت في أبياته الشعرية مجرد إعجاب بالنص القرآني، اقتبسه ليدّل على حالته الحزينة.

وقد لاحظنا أن صلة الشاعر بالقرآن الكريم كانت عميقة فتركت آثارها في أكثر من جانب، ولذلك ارتأينا أن ندرسها من حيث اللغة والصورة والرمز والموسيقى.

اللغة:

مفدي زكرياء ينهج طريقة خاصة تتميز بالتصاقه الشّديد بالقرآن الكريم ونهل منه مفردات وتراكيب يحسن توظيفها والألفاظ التي احتواها القرآن الكريم هي ملك اللغة العربية قبل أن يستخدمها القرآن الكريم، ومن هنا الشاعر حر في التعامل معها. إنّ مفدي زكرياء وهو ينظم أشعاره يعتمد على ذخيرته اللغوية والتي تكونت لديه من اتصاله الوثيق بالقرآن، والقارئ لأشعاره يجد أساليب وكلمات القرآن مبسوطة أمامه ومنتشرة في أشعاره، وبالتالي فإنه يصدر عن معجم اللغة العربية العام، وكلما قرأ القارئ قصائده يستحضر الكثير من ألفاظ القرآن الكريم من ذلك قوله :

واقْضِ يَا مَوتُ فِيّ مَا أَنت قَاضٍ أَنَا رَاضٍ، إنْ عَاشَ شَعبي سَعيدَا[2]

[1] سورة مريم الآية 25

[2] اللّهب المقدس، ص10.

فهذا إقتباس من قوله تعالى:{قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا[1]}

فالعبارة الواردة في الآية الكريمة تناص نلاحظه في الشطر الأول **(واقض يا موت فيّ ما أنت قاضٍ)** تدل على رسوخ مبدأ القدر الديني في معتقد الشاعر وقوله:

زَعَمُوا قَتْلَهُ.... وَمَا صَلَبُوهُ لَيْسَ فِي الخَالِدِينَ عِيسَى الوَحِيدَا[2]

فهذا تعبير قرآني حيث شبّه الشهيد بالنبي عيسى عليه السلام الذي رفعه الله إليه و لم يمت، وأن الشهيد عند الله حي يرزق وهذا مقتبس من **قوله تعالى**:{ **وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا**}3.وفي قوله ضمن قصيدته (وتعطلت لغة الكلام):

والزّرعُ أخْرجَ في الجزائر شَطْأَهُ فمَضَى وَهَبّ إلى الحَصَادِ كرام

والشّعْبُ شقّ الى الخلوُد طَريقه فَـــــــوقَ الجَمَاجِم والخَمِيسُ لُهام.[4]

يتناص مع قوله تعالى:{ **كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**}.[5] ففي كلمة "الزرع" دلالة الخصب والنماء والزيادة،و قد وظفها للإشارة إلى جهاد الشعب الجزائري ونضاله المثمر الذي أينع وتحدى الصعاب وحقق النتيجة.وفي قوله:

---

[1] سورة طه، الآية 72.

[2] المصدر السابق، ص 11.

[3] سورة النساء الاية 158.

[4] المصدر نفسه،ص44ومابعدها.

[5] سورة الفتح، الاية :29.

ضاق الخناق على دعاة الهزيمة وزلت بهم في الثروة الأقدام

وتناثرت تلك الهياكل وانطوت وتهاوت الأنصاب والأزلام.[1]

فكلمتا "الأنصاب والأزلام" ماخوذتان من **قوله تعالى:** (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).[2]إشارة منه إلى أن دعاة مهادنة المستعمر وقبول العيش تحت حكمة يمثلون الشيء المحرم في الجزائر والمحتقر عند الشعب، وأن نجمهم صائر إلى الأفول فهم رجس من صنف الأنصاب والأزلام المعرض عنها من قبل المسلمين.وقوله:

وتسَامى كالرُّوح، في لَيلة القَد رِ سَلَامَا يَشع فِي الكَونِ عيدَا

وامتطى مذبَح البُطُولة معـــ راجا وَوَافِي السَمَاء يَرجوا المَزيدَا[3].

يتناص مع قوله تعالى:{ ***إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ*** فِي لَيْلَةِ ***الْقَدْرِ***}، {تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}[4].

وفي قوله :

هوَ الإثم زَلزل زلزالها فَزَلزلت الأَرض زلزالهَا

وحملها النّاس أثقَالها فأخرجت الأرض أثقالهَا

وقال ابن آدم في حمقه يُسَائلها سَاخرا مالهَا[1]

---

[1] اللهب المقدس،ص47.

[2] سورة الفتح،الآية:10.

[3] المصدر السابق، ص16.

[4] سورة القدر، الآية 5.

تناصت هذه الأبيات مع قوله تعالى:{ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا}[2]، صوّر الشاعر الزلزال الذي أصاب الأصنام (مدينة الشلف حاليا).

وأراد أن يبرز هول المصيبة، والأحداث الناجمة عنه،فلجأ إلى القرآن الكريم الذي يعطي صورة مهيلة هن حودث الساعة وقدرة الله سبحانه وتعالى على تغير الأوضاع مما يؤدي إلى الهلع والإستغراب، وقد ربط الشاعر حدوث الزلزال بما جنت أيادي الناس من الإثم فكأنه جزاء لهؤلاء الذين عاثوا الفساد عندما قال: هو الإثم زلزل زلزالها.ويربط الشاعر نصرة الشعوب بإرادة الله والتمكين له في الأرض فيقول:

إن تَنصروا الله ينصركم وينجز أمانيكم الغالية

ولم يخلف الله ميعاده ولا ريب...ساعتنا آتية[3]

فهذا مستمد من **قوله تعالى** {إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}[4]،حيث وردت ألفاظ الآية كاملة في الشطر الأول وهو بذلك يدعو إلى الإتحاد ونصرة دين الله في الأرض حتى ينعم المسلمون بنصر الله، ونجده استمد من الآية الكريمة {رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ}[5]،ألفاظ ومعاني البيت الثاني ذلك أن التمسك بشرع الله يؤدي إلى رضا الله على عباده ونصرتهم ولن يخلف عهده معهم.

وقوله:

---

[1] المصدر نفسه، ص273.
[2] سورة الزلزلة، الآية 1-2.
[3] اللّهب المقدس، ص249.
[4] سورة محمد ، الآية 07.
[5] سورة آل عمران الآية 09.

أمَانا ! ألا يا سَماء اقلعي فَقَد صبَت الأرض أنكَالها

ويا أرض رَحماك !لا تَبلعي صَبَايا البلاد، وأطفَالها[1]

يرتبط هذا النص بما حدث في زلزال الأصنام 1954 وما صاحبه من فياضانات عارمة،وما يلاقيه الشعب الجزائري من بطش و ظلم على يد المستعمر الفرنسي فأخذ الشاعر لفظ "اقلعي" من الآية الكريمة:{وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[2]، فهو يطلب من السماء أن تكف حتى لا تتضاعف هموم ومحن الشعب الجزائري .في قوله:

فهل الجزائر أفرغت فضلاتها وهل الجزائر أخرجت أثقالها؟[3]

أخذت من **قوله تعالى**{إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا }[4]،فالأثقال أراد الشاعر منها إبراز مخزون الجزائر الجهادي شأنها شأن الأرض عندما تثور.وفي قوله:

دعا التاريخ ليلك فاستجابا (نوفمبر)هل وفيت لنا النصابا

وهل سمع المجيب نداء شعب فكانت ليلة القدر الجوابا؟

تبارك ليلك الميمون نجما وجل جلاله ، هتك الحجابا

زكت وثباته عن ألف شهر قضاها الشعب ، يلتحق السرابا[5]

[1] اللهب المقدس ص 247 وما بعدها.

[2] سورة هود، الآية 44.

[3] اللهب المقدس ص 156.

[4] سورة الزلزلة الآية 1-2.

[5] اللهب المقدس ،ص30.

هذه الصورة مستوحاة من قوله تعالى:{ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}[1] ،إن الشاعر متأثر بليلة القدر العظيمة، نجد ذلك في توظيفه جل ألفاظ السورة القرآنية:ليلة القدر،ألف شهر.

ويقول:

حَالِمًا كَالكَلِيمِ كَلمه (المَجْدِ) فَشَدّ الجِبَالَ يَبْغِي الصُعُودَ[2]

أخد الشاعر لفظ الكليم، وكلّمه من الآية الكريمة : **{ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}**[3]

إن الشاعر في اقتباسه من أحداث هذه القصة يتجلى في لحظة تكليم الله لموسى عليه السلام على طور سناء، وهي لحظات تحسم انتصار الحق على الباطل.[4]

وخلاصة الرأي في التناص مع القرآن الكريم أن مفدي زكرياء استفاد استفادة عظمى من القرآن الكريم، حتى أننا لا نكاد نجد قصيدة واحدة لم تتأثر باللفظ القرآني، فأثر القرآن الكريم ظاهر في شعره، والممتع أكثر هو أن التأثر كان في محلّه لفظا ومعنى، ولعل حسن توظيف اللفظ القرآني أعطى للقصيدة معنى جديدا وألبسها ثوبا الحقيقة و قوة التعبير وحسن التناسق، وما نلاحظه في توظيف اللفظ القرآني أنه يختلف من موضع لآخر، ويمكن أن نميز نمطين للتعامل مع اللفظ القرآني.

أ- توظيف اللفظ دون المعنى:

---

[1] سورة القدر ، الآية 5.

[2] المصدر السابق، ص9.

[3] النساء، الآية 164.

[4] الشعر الجزائري الحديث وخصائصه واتجاهاته الفنية، ناصر محمد ص 475.

نجده يأخذ اللفظ القرآني دون المعنى ، ويعبر به عن معنى غير قرآني وهذا يدل على تفشي اللغة القرآنية في معجمه واستيعابه لها وتأثره الكبير بها مثلما تم ذكره وذلك في قوله:

وفِي سَكْرَة ضَيّعُوا عِزَّتِي وَلَمْ يَغْنِ عَنِّي سَلطانيه[1].

فهو مأخوذ من الآية:{مَا أَغْنَى عَنِي مَالُهُ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانُهُ }[2]، وكذلك في قوله:

ولن يُخْلِفَ اللهُ مِيعَادَه وَلَا رَيْبَ..... سَاعَتُنضا، آتِيةٌ[3]

مأخوذ حرفيا من قوله تعالى: { وَلَنْ يَخْلِفَ اللهُ وَعْدَه}[4].

وفي الحديث عن انتصارات الثورة الجزائرية يقول:

وَالزَّرْع أخْرَجَ في الجَزائر شطأه فَمَضَى وهب إلى الحَصَاد كرام[5].

مستوحى من قوله تعالى: { كَزَرع أَخْرَج شَطأه فآزره}[6].

ب- توظيف اللفظ والمعنى معًا:

في هذا المقام يلجأ الشاعر إلى نقل صورة بعينها لفظا ومعنى ويضمنها في شعره بطريقة فنية تدل من جهة على سعة الثقافة القرآنية للشاعر، ومن جهة أخرى على براعته في التوفيق الدلالي بين قصده ومعنى الآية، وكأنه يريد أن يؤكد مدى تأثره بالقرآن الكريم وتحكمه في ألفاظه ومعانيه،

---

[1] اللهب المقدس، ص 341.
[2] سورة الحاقة، الآيتان 28-29.
[3] اللهب المقدس، ص 349.
[4] سورة الحج، الآية 45.
[5] المصدر نفسه، ص44
[6] سورة الفتح، الآية 29.

وقد مرّ معنا ذكر العديد من هذه الحالات أثناء ذكر بعض نماذج التناص، ولا بأس أن نضيف حالات أخرى من ذلك قوله:

مَنْ يَشْتَرِ الخُلدَ؟ إن الله بَائِعه... فاسْتَبْشِرُوا، وأَسْرِعُوا، فَالبَيْع محدود[1].

" ففكرة البيت تقوم على أساس مفهوم تجاري يتلخص في شراء جنة الخلد بما يقدم ثمنا لها من نفوس و أموال"[2].

والمفهوم مستوحى من قوله تعالى: { إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}.[3]

فالشاعر هنا قد استوحى الآية معنى و لفظا، وقد وجدته في مواطن أخرى يستلهم من الآية روحها ومعناها، فيوفق في كل ذلك، مبرراً ثقافته الدّينية وعنايته بالأسلوب القرآني، مع حسن توظيفه واستثماره.

[1] المصدر السابق، ص271.
[2] يحي الشيخ صالح، ص367.
[3] سورة التوبة، الآية 111.

الفصل الثالث:

وظائف المصطلح الديني في الإلياذة.

الفصل الثالث: وظائف المصطلح الديني في الإلياذة

المبحث الأول: عرض لموضوعات الإلياذة

المبحث الثاني: الحقول الدلالية للإلياذة

المبحث الثالث: المعجم الديني في الإلياذة ووظائفه

المبحث الأول: عرض لموضوعات الإلياذة

يقول الأستاذ "مولود قاسم" في تقديمه للإلياذة "طلبنا من المناضل الكبير والشاعر الملهم، شاعر الكفاح الثوري السياسي، وشاعر الكفاح الثوري المسلم الأستاذ "مفدي زكرياء" صاحب الأناشيد الوطنية...أن يضع لنا نشيدا جديدا يجمع هذه الأناشيد كلها، ويشمل فيه وبه تاريخ الجزائر من أقدم عصورها حتى اليوم، مركزا على مقاومتها لمختلف الاحتلالات الأجنبية وعلى العهود الحضارية الزاهرة المتعاقبة، وحاضرنا ومستقبلنا في كفاحنا لاستعادة جميع ثرواتنا ومقومات شخصيتنا وحصانتنا، وبناء مجد جديد لأمتنا".[1]

فموضوع الإلياذة على وجه العموم هو الجزائر بطبيعتها وعمرانها وتاريخها القديم والحديث إلى جانب مقاومة التيارات الغازية وبناء الحضارة.

وبالرجوع إلى نص الإلياذة نجد أنها تضم ألف بيت وبيتاً وهي تنقسم إلى مواضيع جزئية محددة هي كالتالي:

[1] شعر الثورة عند مفدي زكرياء. دراسة فنية تحليلية، يحي الشيخ صالح، ص 209.

أ. طبيعة الجزائر وعمرانها (سيتغرق 19 مقطعا):

حيث يستهل الشاعر الإلياذة بحديث ساحر جذاب يوجهه للجزائر متغزلا بجمالها ومعددا خصالها، وسماتها التي حققت لها الخلود مازجا بين خلوها لجمالها الطبيعي، وبين خلودها بجهاد أبنائها وبطولتهم:

جَزَائرُ يَا مَطْلَعَ الْمُعْجِزاتِ وَ يَا حُجَـّةَ اللَّهِ فِي الكَـائِـنـَاتِ

وَيَا بَسْمَةَ الرَّبِ فِي أَرْضِهِ وَ يَا وَجْهَهُ الضَاحِكِ القَسَمَاتِ

و يَا لَوْحَةً فِي سِجِلِ الخُلُودِ تَمُوجُ بِهَا الصُـوَرَ الحَـالِـمَاتِ

و يَا تُرْبَةً تَاهَ فِـيهَا الجَـلاَلُ فَتَاهَتْ بِهَا القِمَمُ الشَـامِـخَاتُ[1]

ثم ينحو الشاعر منحى ذاتيا محضا، فيناجي الجزائر مناجاة، المحب الولهان. مركزا على علاقته بها، فهي حكاية حبه وحاملة السلام لقلبه، فمهما يقترب ومهما يبتعد فإن غرامها مستولٍ على قلبه، كيف لا وله في كل درب لحمة وصلة قربى، وفي كل حيٍّ صبوة من صبوات الحب والهوى، وفي كل شبر قصة مجنحة من قصص الحرب والسلام:

جَزَائِرُ يَا لِحِكـَايَةِ حُبّـِي وَ يَا مَنْ حَمَلَتْ السَلاَمَ لِقَلْبِي

وَ يَا مَنْ سَكَبَتْ الجَمَالَ بِرُوحِي وَ يَا مَنْ أَشَعَّتْ الضِيَاءَ بِدَرْبِي

[1] إلياذة الجزائر. مفدي زكرياء، ص3.

فَلَوْ لاَ جَـــمَالُكِ مَاصَحَ دِينِي وَ مَا أَنْ عَرَفْتُ الطَرِيقَ لِرَبِّي

ومَهْمَا قَرَّبْتُ وَمَهْمَا بَعـــدْتُ غَرَامُكِ فَوْقَ ظُنُونِي وَلُبِي

فَـــفِي كُلِّ دَرْبٍ لَنَا لُحْمَةٌ مُقَدَسَةٌ مِنْ وِشَاجٍ وَصُلْبٍ

وَفِي كُلِّ حَيٍّ لَنَـــا صَبْوَةٌ مُرَنحَةٌ مِنْ غَوَايَاتِ صُبٍ

وَ فِي كُلِّ شِبْرٍ لَنَا قِصَّةً مُجَنَحَة مِنْ سَلاَمٍ وَ حَرْبٍ [1]

بعد ذلك يحيل الشاعر ناظريه إلى طبيعة الجزائر الممتدّة الفسيحة ويحلّق في اجوائها متنقلا بين ربوعها، من مدينة إلى أخرى ومن قرية إلى قرية وكأنّه على بساط سليمان[2].

ب تاريخ الجزائر القديم:

بعد أن طاف الشاعر حول الجزائر، وقدم لنا وجهها الطبيعي الجميل عاد ليتحدث عنها من جانب التاريخ القديم وليقدم وجهها الحضاري العريق، فغاص في أعماق التاريخ، متتبعا مختلف الدول وشتى الحضارات التي قامت على أرض الجزائر والشخصيات التي كان لها يد في بناء صرحها. فذكر الأمازيغ و مدنهم والحروب التي قاموا بها ضد الرومان الغازين، وما خلدوه من مآثر وخصال[3]

أَشَرْشَالْ، هَلْ تَذَكَرْتِ "يُوبَا" وَمَنْ لَقَّبوا عَرْشَكِ القَيْصَرِيَة *[1]

[1] إلياذة الجزائر، مفدي زكريا، ص 5.

[2] شعر الثورة عند مفدي زكريا، يحي الشيخ صالح، ص 210.

[3] المرجع نفسه، ص 211.

*[1] شرشال مدينة ساحلية تقع غرب العاصمة كانت تسمى القيصرية وفيها ولى يوبا الثاني عرش الأمازيغ سنة 17 ق.م.

وَمَنْ مَصَّرُوك فَنَافَسْتِ رُومَا وَشَرَّفْتِ أَقْطَارَنَا المَغْرِبِيّة

لِمَـــاذَا يلقبُ يُوبَا بِثَانٍ؟ أَمَا حَقّقَ السَبْقُ فِي المَدِينَة

وَ يَا هِي بِشَرْشَالِ جَنَةَ عَدْنٍ وَزَانَ حَدَائِقُهَا السُّنْدُسِيَّة[1]

وأشاد كذلك بالرستميين ونظامهم المعتمد على الشورى، الشيء الذي جعل عاصمتهم (تيهرت) تغطي بشهرتها بغداد، وتصبح هذه الأخيرة ظلالها:

وَهَالَ ابْنُ رُسْتُمْ أَنْ لاَ نَسُودَ وَ نَبْنِي كَيَانًا لَنَا مُسْتَقِلاً

فَقَامَ بِتَاهِرْت يَعْلَى اللِّوا ءُ و يَرْسِي نِظَاماً وَ يَنْشُرُ فَضْلاً

يُوَجَهُ حُكْمَ البِلاَدِ الشَّرَا ة بِوَحْيِ الشَرِيعَة حَقًا وَ عَدْلاً

وَيَجْعَل أَمْرَا الجَمَاعَةِ شُورَى وَحَقُّ انْتِخَابِ الإِمَامَةِ فَصْلاً

فَدَوَّخَ بَغْدَادَ فِي أَوْجِهَا فَكَانَتْ لِتَاهِرتَ بَغْدَادَ ظِلاً [2]

بعدها تأتي دولة الأغالبة*[1]، ثم الدولة الحمادية*[2].

سَلْ ابْنَ عَلْنَاسَ عَنْ ذِكْرِنَا وَقَلْعَةَ حَمَادٍ عَنْ مَجْدِنَا

يُجِيبُكَ ابْنُ حَمْدِيسٍ، فِي الخَالِدِ ينَ، وَيَصْنَعُ قَوَافِيهِ مِنْ وَحْيِنَا

[1] إلياذة الجزائر، مفدي زكرياء، ص 25.

[2] المصدر نفسه، ص 28.

*[1] دولة الأغالبة (800م - 909م) حكومة مغربية تابعة لبني العباس اسما ومستقلة في الواقع.

*[2] الدولة الحمادية (1014م - 1153م) عاصمتها القلعة " بجاية" امتد حكمها من فاس إلى القيروان وإلى ورقلة جنوبا.

ثم ينتقل إلى دولة الموحدين التي وحدت المغرب العربي تحت امرأة المهدي بن تومرت والتي نزح إليها الأندلسيون ابتغاء الحماية والأمان.

وَ تَنْجِبُ نَدْرُومَةَ الخَالِدِ ينَ فَتَعْلَى الجَزَائِرُ مِنْهَا الجَبِينَ

وَ يَصْنَعُ وَحْدَتَها ابْن عَلِي فَيَرْفَعُ رَايَتَـــــهَا بْاليَمِـــينِ

وَ تَحْـــدُو مَرَاكَـــش أَقْدَارَهَا فَتَنْفَضُ عَنْهَا غُبَارَ السنِينَ

ويَنبَضُ قلب بأرض الجَزَائِرُ تَمسِكُ تونَسَ مِنْهُ الوَتِينَ

وَ تَـــنْصَّبُ أَنْـــــدَلُسَ عِـــنْـــدَنَا وَ تَرْتَاحُ للْعَرَبِ النَازِحِين

وَيَمْضِي ابنُ تُومَرتْ يَغْزُو الظَلاَلَ فَيَخْلُصُ للَّهِ عَقْلٌ وَدِينٌ[1]

ج مقاومة الاستعمار:

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكْتَهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَئِيمَ تَمَرَّدَا

إذا كان هذا البيت الشعري يصحّ بالنسبة للأفراد فإنّه يصحّ بالنسبة للأمم والشعوب أيضا وما احتلال فرنسا للجزائر إلا دليل على ذلك، ففرنسا كانت مدينة للجزائر بكثير من الديون، بعضها كانت قروضاً نقدية، وبعضها كان ثمنا لصفقات من حبوب اشترتها فرنسا من الجزائر،

[1] إلياذة الجزائر، مفدي زكريا، ص 34.

لكنها عندما عجزت عن تسديد ما عليها من ديون فكرت في احتلال صاحبة الفضل عليها جزاءا لفضلها[1]

فَجَاعَتْ فرَنْسا فَكُنَا كَرّامًا وكُنَّا الأَلَي يَطْعَمُونَ الطَعَامَا

فابصرهم قَمْحُنَا الذَّهَبِيِّ وَكَمْ تيطر الصَّدَقَاتُ الليــئاما

أما المقاومة الجزائرية ضد المحتلين فلم تخمد أبدًا، فيهي ما إن تهدأ في ناحية حتى تندلع في ناحية أخرى، ففي قسنطينة نشطت المقاومة على يد أحمد باي، ةفي الغرب بويع عبد القادر أميراً للمقاومة.

وبَلَى يا فَرَنْسِيسَ هَذَا الْحُمَى صَنَعْنَا سِيادَتِهِ بِالدِما

بَلُونَا السِّنِّيْنِ الطّوالِ جِهَادًا تُبَارِكُنَا مُعْــجِزَاتٍ السَّما

مَضَتْ مَائَةٌ وَثَلاثُونَ عَــامًا نُذُودُ ونَأنَفُ أَنَّ نهزما

صَعدنَا نُقَاوِمُ شَرْقًا وَغَرْبًا وَنَجْعَلُ أَرْواحَنَا سُــلَّمًا

غَزَّ الْأُمُورِ يَسِيرُ أَحْمَد بَاشَا فَقُمْنَا بِسِيرْتا نَصُّونُ الْحِمَّــى*[1]

ثم قاد المقاومة بطل آخر هو عبد الرّحمن بن زيان قرب بسكرة، واستشهد فيها.

تَلْقَفُ رايتك اِبْنُ الْجَزَائِرِ وَعِنْدَ اِبْنِ زِيَّانِ تُبْلَى السَّرَائِرَ

وَهَبَّ الزَاعَطِشَةَ الثَّائِرُو نَ فَهَبْ لِنَصْرَتِهُمْ كُلَّ ثَائِرٍ *[2]

[1] شعر الثورة عند مفدي زكرياء، يحي الشيخ صالح، ص 214.

تَحَدَّى اِبْنٌ زِيَّانِ سُخْفِ اللّئامِ فَمَاتَ الشَّهِيدُ فَدَاءُ الْجَزَائِرِ[1]

د. الثورة المسلحة:

هلت ليلة القدر ساطعة للأنظار، وتجلى فيها اتحاد إرادة الله بإرادة المؤمنين، فلعلع صوت الرصاص وانطلقت المدافع تهد الظلم والطغيان رافضة أي تفاوض أو منطق غير منطق النار، وكانت الثورة المسلحة:

تَأْذَنَ رَبُّكَ لَيْـــــــــــــــلَةَ قَدْرٍ وَأَلْقَى السِّتَارُ عَلَى أَلْفِ شَهْرٍ

وَقَالَ لَهُ الشَّعْبُ أُمْرُكَ رَبِّي وَقَالَ لَهُ الرَّبُّ أَمَرَكَ أَمْرَي

ودان الْقِصَاصَ فَرَنْسا الْعَجُوزَ بِمَا اجْتَرَحَتْ مِنْ خِدَاعٍ وَمَكْرٍ

وَلُعْلَعَ صَوْتُ الرَّصاصِ يُدَوِّي فَعَافَ الْيَرَاعُ خِرَافَاتِ حِبْرٍ

وَتَأْبَى الْمُدَافِعَ صَوْغُ الْكَلاَ مِ إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْ شَوَاظ وَجَمْرٍ[2]

ولقد عاشت الثورة أحداثا تاريخية، أثبتت صلابة عودها منها مؤتمر الصومام الذي كان وثيقة الثورة ودستورها.

ومنها حوادث 20 أوت 1955 التي حصد فيها الاستعمار آلافاً من الجزائريين.

تَبَارِكَ وَادِيكَ صومام أَنَّا حَفَظْنَا عُهُودَكَ أَيَّانَ ثُرْنَا *[1]

---

*[1] أحمد باشا باي قسنطينة و "لاموريسير" قائد الاحتلال في قسنطينة سنة 1937.

*[2] قاد ثورة الزعاطشة قرب بسكرة الزعيم عبد الرحمن بن زيان 1846.

[1] إلياذة الجزائر ، مفدي زكرياء، ص40.

[2] المصدر نفسه، ص 53.

*[1] مؤتمر وادي الصومام: انعقد يوم 20 أوت 1956، كان أول مؤتمر وطني يعقد بعد اندلاع الثورة.

أصومام بِاسْمِكَ سصُمَمٌ شَّعْبٍ سِياسَةَ ثَوْرِتِهِ فَانْطَلَقْنَا

سكِيكْدَةَ الثَّائِرِينَ أعِيدي عَلَيْنَا فَضَائِحَ با غ حَقُودَ[1]

أُغُسْطُسٌ عِشْرُونَ لَمْ يَنْسِهَا وَيَذْكُرُهَا أَلْفَ أَلْفُ شَهِيدا

وَخَمْسٌ وَخَمْسُونَ فِي الذِكْرَيَاتِ جَلاَلٌ بِهُدْهُدِ صَدْرِ الْوُجُودَ

وَعِطْرُ الْمَذَابِحِ فِي ساحِهَا نَوافِحٌ تَلُّهَمُ سَفَرَ الْخُلُودِ [2]

هـــ - الاستقلال وثورة البناء:

بعد هذه الرحلة الشاقة الطويلة تحقق النصر وأطلت شمس الحرية ساطعة في أفق الجزائر، فكان ذلك إيذانا بخوض معركة أخرى، ضدّ عدو آخر، هو التخلف والفقر والجهل، وذلك بانتهاج سياسة مستوحاة من واقع الجزائر ومقوماتها.

وإذا كانت هناك ثورة، في مجال الاقتصاد فإن ثورة الفكر والثقافة هدفها تحقيق الأصالة، وتربية النفوس، وغزو الجهالة. [3]

إذَا مَا انْتَصَرْنا بِحَرْب الخَلَاصِ فَثَوْرَتُنَا اليَومَ حَرْبُ أصَالةٍ

نَهـــــــدْنَا الَمَعْرَكَة المُسْتَوى نُرَبِي النُفُوسَ ونَغْزُو الجَهَالَةَ

ويَصْنَعُ إيمَانُنَا أُمَّـــةً قِوامًا فَتَرْجِفُ مِـــنْهَا الضَلَالَة

وإنْ يَنصُرِ الشَّعْبَ حَرْبَ الضَمِيرِ، أقُمْنَا بِوَحْي الضَّمِيرُ احْتِفَالُهُ [4]

ومنها الاهتمام بالماجد ودورها في عميلة التوعية وغرس الأخلاق في النشيء الصاعد:

تَسَامَتْ مَصَادِرُ أَشْعَاعِنَا تُدَعِمُ خَالِصَ إيمَانِنَا

مَسَاجِدُ لِلْهُدَى فِي كُلِّ فَجٍّ تَنِيرُ السَّبِيلَ لأجْيَالِنَا

[1] 20 أوت 1955، حيث تضامنت الجزائر مع المغرب، في ذكرى اختطاف زعيمه محمد الخامس.

[2] المصدر السابق، ص 55 وما بعدها.

[3] شعر الثورة عند مفدي زكريا، يحي الشيخ صالح، ص 224 وما بعدها.

[4] إلياذة الجزائر، ص73.

وفي المقاطع الأربعة الأخيرة من الإلياذة ينحو الشاعر منحى ذاتيا حيث يعلن التوبة والاستغفار لله من معصيته التي ليست إلا كشف الجمال، والشاعرية المرهفة المرحة:

فَيَا رَبِي قَدْ أَغْرَقَتني ذُنُوبِي وأَنْتَ العَلِيمُ بِمَا فِي الغُيُوبِ
أَتُوبُ إِلَيْك بإليَاذَتِي عَسَاهَا تُكَفِرُ كُلَ ذُنُوبِي
عَصَيْتُكَ عِلْمًا بِأَنَّكَ تَعْفُو عَلى المُسْرِفِينَ فَهَانَت خُطُوبِي
وَأَكَدَ فِعِلُ الصِفَات العُصَا ةِ فَأَكَدَ فَضْلُكَ سِتْرُ العُيُوبِ
فَيَا رَبُّ ما حِيلَتِي فِي الهَوَى وفِيكَ إِذَا لَمْ تُكَفِرِ ذُنُوبِي[1]

ثم تطرق شاعر إلى شعره، ودوره في خدمة الجزائر فيفتخر بأنه خلد الثورة ووهب الجزائر فكره وعمره، فآمن به الأحرار وأنكره الذين قصروا عن بلوغ مترلته، فحلق في السماء، وتركهم في غبار الأرض وشعره يفنذهم بسحره [2]

بِلاَدِي وَقَفَتْ لِذِكْراكِ شِعْرِي فَخَلّدَ مَجْدُكَ فِي الكَوْنَ ذِكْرَى
وَأَلْهَمَتْنِي فصَدَعتُ الدُّنـــا بإليَاذَتِي في اعْتِزَازٍ وَفَخْرٍ
فَخَلّدَ قُدْسَ اللَهِيبِ بَيانِي وأَذْكى لهِيبُ الجُزَائرِ فِكْرِي
وإنْ يَجْحَدُونِي فحَسْبِي أَنَى وَهبْتُ الجزَائِرَ فِكْرِي وعُمْرِي
فَآمَن بِي كُلُّ حُرٍ أصِيلٍ وأَنْكَرَ شَمْسُ الضُحَى كُلَ غُمْرٍ
وتَقْصُرُ دُون خَطَايَ خَطَاهُمْ ويُؤْذِيهِم الوَرْدُ مِن طِيبِ عِطْرِي
وأَلْقَيْتُ فِي السَّاحِرِين عَصَا ي تَلْقَفُ ما يَأْفكُونَ بِسِحْرِي[3]

وبالرغم مما تقدم في الإلياذة من وصف للجزائر وحديث عن بطولاتها فإن الشاعر يعتذر للجزائر لأن الألسنة تعجز عن وصف علاها.

[1] إلياذة الجزائر، ص 98.
[2] شعر الثورة عند مفدي زكرياء، دراسة فنية تحليلية، يحي الشيخ صالح، ص 229.
[3] إلياذة الجزائر، ص 99.

بِلَادِي بِلَادِي الأَمَانُ الأَمَانُ أَغْنَى عُلاَكِ بِأَيِّ لِسَانِ
جَلاَلُك تَقصُرُ عَنهُ اللُّغَى وَيُعْجِزُنِي فِيكَ سِحْرُ البَيَانِ
إلَيْكِ صَلاتِي وأَزْكَى سَلاَمِي بِلادِي بِلادِي الأَمَانُ الأَمَانُ[1]

ومما يمكن استخلاصه من كل هذه الوقفات التحليلية أنّ للإلياذة موضوع واحد هو الجزائر، قد صيغ في قالب ملحمي يحكي قصة الشعب الجزائري، وكفاحه ضد الاحتلال الأجنبي باختلاف أنواعه وأزماته، تعبرعن الجماعة وتصور الأحداث الجماعية، وحتى في تناولها فردًا معينا يكون الهدف البعيد الجماعة التي ينتمي إليها.

كما تمتاز إلياذة الجزائر عن غيرها بكونها تعد وصفا للحقائق وسجلا للوقائع. مع التحذير من مغيبات وقعت فيها أمم في قمة التقدم ونحن في أولى درجات السلم من جديد[2].

كما يمكن القول إنها شكل من أشكال التاريخ، ورفض مفدي زكرياء لمقاييس الإلياذة بمفهومها القديم حيث تنتمي إلياذته هذه لنموذج ثقافي وحضاري هو النموذج الإغريقي والفارسي[3].

وقد تميز في الأخير عن كل النماذج بمنحه الإسلامي الذي أضفى عليه خصوصية مضمونية تنبع من الروح الإسلامية عند مفدي زكرياء.

[1] المصدر السابق. ص 102
[2] إلياذة الجزائر، ص 100.
[3] محمد عيسى وموسى، كلمات لمفدى زكرياء في ذاكرة الصحافة الوطنية الجزائر، دط، 2003، ص 80 وما بعدها.

المبحث الثاني: الحقول الدلالية للإلياذة

إن أكثر ما يشد انتباه القارئ إلى الإلياذة هو المادة التاريخية الطاغية على بنيتها، فهي ظاهريّا بنية تاريخية أو نسق من التحولات والأحداث، لكن النظرة المتمعنة لنص الإلياذة تكشف لنا عن بناء ملحمي محكم وتبيين لنا وعي مفدي زكرياء بالعمل الذي أنجزه وصلته بالملحمة أكثر من أي جنس شعري آخر.

وبما أنه لا يمكن لنا أن نقرأ الإلياذة بمعزل عم نتاج مفدي الشعري الآخر، وخاصة اللّهب المقدس: فإن ما نلاحظه في إلياذة أنها ترصد مجموعة من الأحداث، وتمتد إلى مساحة زمنية أوسع تبدأ من فجر التاريخ إلى يومنا هذا، وتضيء اللحظات الحاسمة في حياة الأمة الجزائرية، وهي بهذا المفهوم تعتبر الملحمة شعر موضوعي يتصف بالطول ويحكي بطولة شعب في فترة ما من تاريخه بكثير من التعلق والحماسة. وهكذا يمكن أن تقول إن إلياذة الجزائر تحتوي اللهب المقدس وتتجاوزه ولا تجعل منه إلا شكلاً من أشكال التحولات وحلقة في سلسلة التحولات التي قادت إلى التحرر عن طريق فعل شخص أو مجموعة من الأشخاص [1].

ومن الحجج القاصرة التي قدمت أيضاً على عدم مطابقة إلياذة الجزائر لمقاييس الملحمة عند أرسطو هي عدم احترام "مفدي زكرياء" للأحداث الثلاث (وحدة العمل ووحدة الزمان ووحدة المكان) لعل هذا بالذات هو الذي يجعل الإلياذة تتمتع بخصوصيتها واستقلاليتها، ذلك أن الإلياذة لم تبدأ من حيث كان يجب أن تبدأ، فهي بدأت من فعل أحداث التحول والتمحور وهو ثورة التحرير المسلحة حيث وضع الشاعر في ملحمته "علي لابوانت" مقابل الجنرال "بيجار"، وتقابل الرجلين، أي نموذج حضاري للآخر وفي إلغائه دلالة أي التحرر واستعادة الحرية، هي شكل آخر استعادة الصوت كلغة وثقافة وبهذا تختلف إلياذة الجزائر من حيث عرض الأحداث

[1] الظاهرة الشعرية العربية، الحضور والغياب حسن قمري منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2001/ ص 92.

كما تفصح رؤيتها الداخلية عن علاقة هذا العمل الشعري بالملحمة من الناحية الشكلية والبنيوية على الأقل.

يمكن أن نرى أنّ إلياذة مفدي حافظت على مقاييس الملحمة التي تبدأ بمقدمة (برولوج) وهذا ما وجدناه في المقاطع الأربعة الأولى حيث يقدم مفدي بطله الذي هو الجزائر بكل ما يليق بهذا البطل من سمات التقدير وإشارات الإجلال، حيث يقول:

جَزَائِرُ يا مَطْلَعَ المُعْجِزَاتِ ويَا حُجَةَ اللهِ فِي الكَائِنَاتِ
ويا بَسْمَةَ الرَّبِ فِي أَرْضِهِ وَيَا وَجْهَهُ الضَاحِكِ القَاسِمَاتِ
وَيَا لِلْبُطُولَاتِ تَغْزُو الدُّنَا وَتُلهِمُهَا القِيَمُ الخَـــالِدَاتِ
وَأَهْوَى عَلى قَدَمَيْهَا الزَّمَانُ فَأَهْوَى عَلى قَدَمَيْهَا الطُّغَاةُ [1]

ويقول في مقطع آخر:

جَزَائِرُ يَا بِدْعَةَ الفَاطِـــرِ ويَا رَوْعَةَ الصَّانِعِ القَادِرِ
ويَا ثَوْرَةً حَارَ فيهَا الزَّمَانُ وفِي شَعْبِهَا الهَادِي الثَائِرِ

ويقول:

جَزَائِرُ أَنْتُ عَرُوسُ الدُّنَـــــا ومِنْكِ اسْتَمَدَ الصَّبَاحُ السَّنَا
وأَنْتِ الجِنَانُ الذِي وَعَـــــــدُوا وإِنْ شَغَلُونَا بِطَيْبِ المُنَى
صَنَعْتُ البُطُولَاتِ من صُلْبٍ شَعْبٍ سَخِي الدِّمَاءِ فَرُعْتِ الدُّنَا[2]

هذه الأبيات تبين صحة الفرضية التي قدمناها على اعتبار هذه المقاطع بمثابة (البرولوج) أي المقدمة حيث عرض البطل الجزائر بشكل طقوسي يقترب من الطريقة التي يقدم بها الأبطال الأسطوريون لأن الإلياذة ملحمة صنعت البطولات من صلب شعب سخي الدماء، وهي البطولات التي غزت كل الأمصار بشهرتها وانتشارها لأنها تعد مطلع المعجزات وفاتحة ثورة حار فيها الزمان.

[1] إلياذة الجزائر، مفدي زكرياء، ص3.
[2] المصدر نفسه، ص 6.

وهناك خاصية بنيوية أخري تجعل الإلياذة تقترب من المنطق الداخلي للملحمة هي (الكورال) أو الغناء والملحمة تقدم بغناء المشاهد التي لا يمكن تمثيلها على المسرح كمشاهد العنف

مثلاً لأن الملحمة عمل سام فإنّ اللاّزمة:[1]

شَغَلَنَا الوَرَى , ومَلأنا الدنا

بِـــــشِعْرٍ نُرَتِلُهُ كَالصَلاة

تَسَابِيحُهُ مِن حَنَايَا الجَزَائِر[2]

هذه اللاّزمة تقدم بوظيفة بنيوية أساسية أي تقوم بفصل مقطع عن مقطع آخر وتنبه على انتهاء المقطع للبدء في آخر جديد، وتربط في دلالتها مفهوم الحرية بالقدرة على التواصل ونقل هذا النشيد إلى ابعد نقطة ممكنة في الأرض.

خاصية أخرى بنيوية تبين علاقة إلياذة الجزائر بالملحمة هي نهاية الإلياذة التي تشبه في وظيفتها النهائية التي تختم بها عادة الملاحم، وهي الغناء الفردي أو الجماعي الذي يصاحب عودة البطل منتصرًا، وهذه الأناشيد تصحب سقوط الستار، وغالباً ما تكون في شكل عبر وخلاصة لمسيرة البطل وتتويجاً لانتصاراته، فبعد أن ينتصر يكرّم بالمدح والشعر والثناء، هذه الخاصية تتمثل في المقطع الأخير من إلياذة الجزائر، حيث يبدي مفدي زكرياء إعجابه بخروج البطل الجزائر منتصراً على العقبات التي اعترضت سبيله[3].

بِلاَدِي بِلاَدِي الأَمَانُ الأَمَانُ أَغْنَى عُلاَكِ بأَيِّ لِسَان؟

جَلاَلُكِ تَقْصُرَ عَنْهُ اللُّغَى وَيُعْجِزُنِي فِيكِ سِحْرُ البَيَان

[1] الظاهرة الشعرية العربية الحضور والغياب، حسين فمري، منشوراتاتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001، ض 94.

[2] إلياذة الجزائر، ص 3.

[3] الظاهرة الشعرية العربية، الحصور والغياب، حسين نمري، ص 95.

إلَيْكِ صَلاَتِي، وَأزْكَى سَلاَمِي بِلاَدِي بِلاَدِي الأَمَان الأَمَان[1]

وهذه الأبيات في مضمونها تمجيد الجزائر البطل الذي تعجز اللغى عن وصفه ويحير فيه سحر البيان، وتقدم لهذا البطل كل علامات التقدير والإعجاب بعودته منتصراً.

ومن الدلالات التي تشير إلى الوعي الذي كان يتمتع به مفدي زكرياء أثناء عمله على مشروع كتابة ملحمة جزائرية هي استعماله لكلمة **إلياذة** أو إحدى قرائنها أو عناصرها المكونة لها أكثر من عشرين مرة، في سياقات تنم عن وعيه بالجنس الذي يكتب فيه واطلاعه على التراث الإنساني الذي كتب في هذا السياق يقول:

وقَالُوا انْحَرَفْتُ بإلياذَة تَلُومُ الشَبَابَ وَمَثلَكَ يَعْلُو

هُومِيرُوس أَرخ... لَم يَنْتَقِد وَشَهْنَامَة الفُرسِ بالوَصْفِ تَعْلُو

فَقُلتُ: وشِعْرُ الخُرَافَات يَفْنَى وشِعْرُ البُطولَات لاَ يَضْمَحَلُ[2]

هذه الأبيات تعكس وعي الشاعر واطلاعه على هذا الجنس الشعري عند الإغريق والفرس (إلياذة هوميروس وشهامة الفرس) وعزاء مفدي زكرياء أن مضمون الإلياذة الإغريقية والفارسية مضمون أسطوري وخرافي، في حيث أنّ مضمون إلياذة الجزائر هو مضمون بطولي تاريخي، وهكذا يؤكد الشاعر صلة الإلياذة بالتاريخ وتداخل هذين الحقلين المعرفيين وهو تداخل يتخذ شرعيته من الواقع نفسه.

وهكذا تتجاوز إلياذة الجزائر الإلياذات السابقة عليها لأنها تدخل في مشروع وطني أوسع حيث تكون ممارسة التاريخ شكلا من أشكال الوعي وتصير الإلياذة بمفهومها الأسطوري تعبيراً عن الممارسات الخرافية التي تجد جذورها في المناخ ويرفض مفدي زكرياء للإلياذة بمفهومها الأسطوري حيث تلعب الأسطورة والخرافة دور المحرك للأحداث فإنّ هذا الرفض، يتجلى في وظيفة الإلياذة عندها.

[1] إلياذة الجزائر، مفدي زكرياء، ص 102.

[2] إلياذة الجزائر، مفدي زكرياء، ص 100.

فوظيفتها ليست فقط إمتاع الناس أو الغلو في الخيال، ولكنها لتثبيت لحظات لا يجب أن تفلت من الذاكرة وبتعبير آخر هي شكل من أشكال إنتاج التاريخ[1].

وبِالدَمِ نَكْتُبُ تَارِيخَنَا وَنَبْلُغُ بِالعَدْلِ فِيهِ الكَمَالَا[2]

ولعل هذا ما يميز إلياذة الجزائر عم غيرها من الإلياذات التي عرفها الأدب الإنساني وهو أنها كتبت بالدم، الذي كان الضريبة التي دفعها الشاعر وكل الجزائر من أجل كتابة هذه الإلياذة التي تعتبر نتيجة لحرية التواصل وإبلاغ التاريخ إلى الذين صنعوه.

والكتابة بالدم هي الكتابة الإبداعية وهي التضحية من أجل الإبداع.

تَأَذَنَ رَبُكَ لَيــلَةَ قَدْرٍ وَأَلْقَى السِّتَارَ عَلَى أَلْفِ شَهْرٍ

وقَالَ لَهُ الشَّعْبُ أَمْــرُكَ رَبِّي! وَقَالَ لَه الرَّبُ :أَمْرُكَ أَمْرِي!!

ودَانَ القِصَاصَ فِرَنْسَا العَجُــوزُ بِمَا اجْتَرَحَتْ مِنْ خِدَاعُ وَمَكْرٍ

ولَعْلَعَ صَوْتُ الرَصَــاصَ يُدَوي فَعَــافَ اليَــرَاعُ خِرَافَات حِبْرٍ!!

وتَأْبَى المَدَافِعُ صُوغَ الكَلَامِ إذَا لَــمْ يَكُنْ مِنْ شَوَاظٍ وَجَمْــرٍ!

وتَأْبَى القَنَابِلُ طَبْعَ الحُرُوفِ إذَا لَــــمْ تَكُنْ مِنْ سَبَائِكِ حَمْــــرٍ!

وتَأْبَى الصَفَائِحُ نَشْرَ الصَحَائِفِ مَا لَمْ تَكُنْ بِالقَرَارَاتِ تَسْــــــرِي!

وَيَأْبَى الحَدِيدُ اسْتِمَاعَ الحَدِيثِ إذَا لَمْ يَكُنْ مِنْ رَوَائِــــعُ شِعْرِي!

نُوفَمْبَرُ غَيَرْتُ مَجْرَى الحَيَاةِ وَكُنْتَ نُوفَمْبَرُ مَطْــلَعَ فَجْرٍ!

وذَكَرْتَنَا فِي الجَزَائِرِ بَدْرًا نُضَاهِي صَحَابَةَ بَدْرٍ

شَغْلَنَا الوَرَى وَمَــــــلَأْنَا الدُّنَا

بِشِعْرٍ نُرَتِــــــــــلُهُ كَالــــــــصَلَاةِ

تَسَابِيحُهُ مِنْ حَنَــــايَا الجَزَائِرِ[3]

[1] الظاهر الشعرية العربية، الحضور والغياب، حسين خمري، ص 97.

[2] إلياذة الجزائر، مفدي زكرياء، ص 86.

[3] إلياذة الجزائر مفدي زكرياء، ص 53.

استعمل الشاعر ليلة القدر ودلالاتها الدينية ويقصد بها هنا ليلة الفاتح نوفمبر 1954 التي اندلع فيها الكفاح التحريري المسلح، هذه الحلقة.

ورفض مفدي زكرياء لمقاييس الإلياذة بمفهومها القديم يعود أيضاً إلى مصادر إلياذة الجزائر التي رغم خصوصيتها فإنها تنتمي إلى نموذج ثقافي وحضاري، هو النموذج العربي الإسلامي الذي يختلف في وسائله ودلالاته عن النموذج الإغريقي والفارسي، لأن الأول يدين بالوثنية والثاني بالمانوية ويعتبر المتنبي أحد مصادر مفدي زكرياء الذي يقول:

تَنَبَأْتُ فِيهَا بِإِلْيَاذَتِي فَآمَنَ بِي وبِهَا المُتَنَبِي![1]

لأن المتنبي يعترف بحق شاعر العروبة الذي استطاع أن يقف في وجه المد الشعوبي وأن يبدع خلال ديوانه ملحمة العرب، واعتراف المتنبي بإلياذة الجزائر دليل انتماء حضاري وثقافي وهو أيضاً رمز من رموز الفحولة الشعرية (أنام ملء جفوني عن شواردها) و لم ينسى الشاعر الحديث عن الحيوان "إلياذة" وذلك الدور الذي لعبه كأداة نقل الأشخاص والسلاح وكوسيلة لمراوغة الاستعمار.

وهو تعبير عن استعمال الجزائر لكل الوسائل للقضاء على العدوّ، وإن كان الحيوان في الآداب الرمزية (كليلة ودمنة لعبد الله ابن لمقفع وتداعي الحيوان على الإنسان لإخوان الصفاء) يلعب دور الوسيط التعبيري، في أنّ الحيوان في إلياذة الجزائر يقوم بدور ما يستطيع أن يقوم به الإنسان ودوره هنا يشبه دور الشخوص المساعدة.

إِذَا الشِعْرُ خَلَّدَ أَسْدَ الرَّهَانِ أَنْسَى مُغَامَرَةَ الحَيَوَانِ

بِذِكْرَاكِ تَعْتَزُ إِلْيَـــــــــاذَتِي فَأَزْكَى التَحِيَاتُ: يَا حَيَوَانُ![2]

فالدور الذي أداه هذا الحيوان أهله لأن يخلد في إلياذة الجزائر وفي تاريخ الحروب البشرية كم من حيوان قُلد أعلى الأوسمة لجليل الأعمال العسكرية التي قدّم. وفي هذا المقطع يؤكد مرّة أخرى مفدي زكرياء وعيه بالجنس الشعري الذي يكتب فيه، فهي ملحمة لكنها تختلف عم

[1] المصدر السابق، ص 05.

[2] نفسه، ص 65.

الملاحم السابقة لأنها تستند إلى التاريخ وإلى الواقع هذه بعض السياقات التي ورد فيها مفهوم "الإلياذة" معبراً عن وعي الشاعر ومعبراً عن إطلاعه على الملام القديمة التي عرفتها الآداب البشرية، وملحاً في نفس الوقت على المشروع الشعري والتاريخي الذي يعمل عليه من خلال قراءته الشعرية لتاريخ الجزائر.

وقد كرس مفدي زكرياء بعض عناصر الملحمة في "إلياذة" وتشكل هذه العناصر إما بعض

الملحمة كالأسطورة أو الحكاية أو الخرافة وتتقاطع في وظيفتها مع المفهوم العام للملحمة[1].

[1] الظاهرة الشريعة، الحضور والغياب، حسين خمري ، 97.

المبحث الثالث: المعجم الدّيني في الإلياذة ووظائفه

تجدر الإشارة إلى أن الملحمة تنبنى في الأساس على التفكير الديني، فهي وليدة عنه وهو فيها يمثل عصبا يحرك الأحداث ويغير مجاريها، وخليفة ينطلق منها الشاعر للتعليل والتفسير والحكم في الأخير.

وإذا كان العنصر الديني في إلياذة هوميروس متمثلا في الآلهة المتعددة التي تجتمع على قمة جبل الألب كما تجتمع البرلمانات والهيئات التنفيذية في عصرنا الحديث وتصدر أحكامها بمنطق لا يبتعد كثيراً عن منطق البشر إذ تتحيز وتغار وتتنافس... فإن الدّين في إلياذة الجزائر يلعب هو الآخر دوراً أساسياً لكنه يختلف في صميمه عنه في إلياذة هوميروس.[1]

فهو عند مفدي زكرياء الدين الإسلامي القائم على أساس الوحدانية في كل ما يتصل بالله وقد لعب هذا العنصر دوراً خطيراً في توجيه الأحداث وتقرير المصائر حيث ركز الشاعر علة دور مشيراً إليه في أكثر من موضع مصرحاً بخطورته وتحكمه بزمان الأحداث.

ويبدو هذا واضحا بدءا من المقدمة الخاصة بوصف الطبيعة الجزائرية حيث يربط الشاعر بين جمالها وبين الإيمان، فهي حجّة الله ودليل وجوده.

جَزَائِرُ يَا مَطْلَعَ المُعْجِزَاتَ ويَا حُجَةَ اللهِ فِي الكَائِنَاتِ

ويَا بَسْمَةَ الرَّبِ فِي أَرْضِهِ وَيَا وَجْهَهُ الضَاحِكِ القَاسِمَاتُ[2]

وفي وجه الجزائر الجميل تتجلى قوة الصانع القدير.

جَزَائِرُ يَا بِدْعَةَ الفَاطِرِ ويَا رَوْعَةَ الصَّانِعِ القَادِرِ[3]

[1] شعر الثورة مفدي زكرياء، دراسة فنية تحليلية يحي الشيخ صالح، ص 237.

[2] إلياذة الجزائر، 3

[3] المصدر السابق، ص 4.

وجمال الجزائر دليل على وجود الله، وبالتالي عامل هداية إلى الإيمان:

فَلَوْلَا جَمَالُكِ مَا صَحَ دِينِي ومَا إنْ عَرَفْتُ الطَرِيقَ لِرَبِي[1]

وإذا كان المؤمنون حائرين ومختلفين في إمكانية رؤية الله أو عدمها فكيف يذهلون عن رؤية وجهه في الجزائر:

أَفِي رُؤْيَةِ اللهِ فِكْرُكِ حَائِرٌ وتَذْهَلُ عن وَجْهِهِ فِي الجَزَائِرِ[2]

وكما أننا نجد الدّين يظهر في دور العبادة والعقيدة المحركة من الإلياذة تقريباً حتى نهايتها، وذلك عندما يصل الشاعر إلى الفتح الإسلامي ودخول الجزائر عهد جديد بقي مستمراً إلى اليوم قلب الحياة رأساً على عقب، وحارب الخبث وزكى النفوس وأحيا المرأة من موتها القديم:

أُولَئِكَ آبَاؤُنَا مُنذُ عِيسَى وَكَانَ مُحَمَدُ صَهْرًا لِعِيسَى

ولاَحَ الصَّبَاحُ فَهَزَ السُكَارَى وأَجْلَى النَدَامَى وَرَضَ الكُؤُوسَا

وأَيْقَظَ حُلْمَ اللَيَالِي الحُبَالَى وَأَسْرَجَ فِي الكَائِنَاتِ الشُمُوسَا

وَأَهْوَى عَلَى البَغَى بُذُورَ الجُذُو عِ ويَغْرِسُ في الجَبَرُوتِ الفُؤُوسَا

وَجِذْرُ آدَمَ ظُلْمَ أَخِيهِ وسَوَى الحُظُوظَ وَأَعْلَى الرُؤُوسَا

وأَخْرَجَ حَوَاءُ مِنْ رَمْسِهَا فَأَلْهَمَتْ الرُوحَ هَذى الرُمُوسَا

لَئِنْ حَارَبَ الدِّينَ خُبْثُ النُفُو س فَلَم يَغْمِطْ الدِّينُ هَذْيَ النُفُوسَا[3]

وفي ظل الدولة الرستمية يظهر أثر هذا الدين في السياسة المبنية على الشورى وإقامة الحق والعدل:

وهَالَ ابْنُ رُسْتُم أنْ لَانَسُودَ وَتَبْنِى كَيَانَا لَنَا مُسْتَقِلَا

فَقَامَ بِتَهارت يَعْلَى اللِّوَا ءَ وَيَرْسَ نِظَامَا وَيَنْشُرُ فَصْلاً[4]

[1] نفس المرجع، ص 5.
[2] إلياذة الجزائر، ص 7.
[3] المصدر نفسه، ص 26.
[4] المرجع نفسه، ص 28.

وَيَجْعَلُ أَمْرَ الجَمَاعَةِ شُورَى وحَقُ انْتِخَابٍ الأُمَامَةِ فصْلاً

ويبلغ دور الدين أوجه في توجيه الأحداث في ثورة نوفمبر المسلحة ليتبوأ مركز القيادة وتنطلق شرارتها من أحضانه موجهة بهديه.

فالثورة لم تقم إلا عند ما أذن الله بها، وعلى أساس التلاحم بين مشيئة الله وإرادة الشعب، فهذا الشعب يعلن استعداده لتنفيذ مشيئة الله وهو عندما يعزم على الثورة فإن الله متكفل بإعانته ونصره

تأذن ربّك ليلة قدر وألقى الستار على ألف شهر

وقال له الشعب أمرك ربي وقال له الربّ أمرك أمري[1]

هذه الصورة الحوارية بين الله والشعب تشير ببراعة إلى تلاحم الإرادتين وتمازجهما وتشكيلهما في الأخير إرادة واحدة تنتهي إلى قرار واحد ومن ثم تؤكد المنطلق الديني للثورة بشكل مطلق وعميق.

وما دام الأمر كذلك فمن البديهي أن تندرج هذه الثورة في مساق تاريخي إسلامي وأن يكون مثلها الأعلى، ومعارك المسلمين في صدر الإسلام ضد الشرك والطغيان[2]:

نُوفُمْبَرُ غَيَرْتُ مَجْرَى الحَيَاةِ وكُنْتَ نُوفَمْبَرَ مَطْلَعَ فَجْرٍ

وذَكَرْتَنَا فِي الجَزَائِرِ بَدْرًا فَقُمْنَا نُضَاهِي صَحَابَةُ بَدْرٍ[3]

ولأهمية العامل الديني في اندلاع الثورة والسير بها نحو النصر يعود الشاعر في مستهل الجزء الذي يتناول فيه مرحلة الاستقلال إلى تأكيد الحقيقة التي أوردها في مستهل الحديث عن المسلحة، وهي دور الإيمان في الثورة أي أن الشاعر استهل حديثه عن الثورة بالإيمان وبه ختمه أيضاً، ففي هذه الأبيات يحل الدين مركز الصدارة بل هو العامل الأساسي في إنجاح الثورة لأن الوفاء للدين هو الذي جعل الشعب يقرر مصيره باختيار طريق الثورة.

[1] إلياذة الجزائر، ص 53.

[2] شعر الثورة مفديي زكرياء، ص 239.

[3] المصدر السابق، ص 53.

الخـــاتـــــمـــــــــة

ومن جملة النتائج التي خلصنا إليها، بعد وقفتنا المتأنية عند فكرة توظيف مفـــدي زكريـــاء للمعجم الدّيني، في إلياذته ،والتي عالجناها من خلال جانب نظري وآخر تطبيقي، ما يلي:

- نشأ مفدي زكرياء في بيئة محافظة، وترعرع في عائلة جزائرية مسلمة شعارها الدين الإسلامي وحب الوطن والجهاد في سبيله من أجل الحرّية.

- سافر مفدي إلى المغرب وتونس من أجل التعلم والدراسة ممّا زاد من تمسكه بالدين الإســـلامي، والأخلاق الفاضلة، فواصل نضاله لأجل وطنه حتى سار سفيرا للقضية الجزائرية.

- معظم شعره موجّه للأمة العربية المسلمة مثلما ينعكس في توظيفاته للمصطلحات الدّينية.

-كان للأوضاع السّياسية الّتي عاشها الشعب الجزائري دور بارز في جعل مفدي زكرياء يوظـــف المعجم الديني وذلك لتقوية الإيمان في قلوب الجزائريين.

- إن عملية استحضاره للتناص الديني قد تمت بطريقة انتقائية ومركزة تخضع في ذلـــك لطبيعـــة الأفكار والمواقف التي أراد الشاعر إيصالها ،كما أن طريقة توظيفه للتناص اعتمدت على التلمـــيح والترميز بعيدا عن الغموض المتعارف عليه في الشعر المعاصر.

- جاء التوظيف في أغلبه، في شكل اقتباس أو تضمين أو استشهاد آخذا بذلك طـــابع التنـــاص الديني.

- غلب التناص الديني على معظم أجزاء إلياذة الجزائر ويعود ذلك لأصالة الشاعر وتكوينه الخاص من جهة، وتجاوبا مع ثقافة المتلقي الخاصّة من جهة أخرى.

- استخدم مفدي الصّور الفنية المؤثرة والكاشفة، لتصبح بذلك مظهرا راقيا من مظاهر الفعاليـــة الخلاقة بين اللّغة والفكر، و في هذه الحال تصبيح الصورة الفنية طريقة خاصّة من طـــرق التعـــبير تنحصر أهمّيتها فيما تحدثه من خصوصية وتأثير في المعنى.

- استطاع مفدي زكرياء أن يعكس صدقا وفعالية في تعامله مع التراث الديني وهذا يعود لانتمائه الحضاري والديني العميق ولصدق تجربته الفنية والدينية.

ولله الحمد من قبل ومن بعد.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم برواية ورش عن الإمام نافع.

- الحديث النبوي الشريف.

المصادر:

إلياذة الجزائر، مفدي زكرياء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1987.

اللّهب المقدس، مفدي زكرياء، الديوان، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، ط2، 1973

المراجع:

1. أقدام، جاشتويا شلال، ترجمة غالب هلسا، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1980.
2. أوراق في النقد الأدبي،إبراهيم رماني، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة الجزائر، ط1، 1985.
3. تأملات في إلياذة الجزائر لمفدي زكرياء ، بلحيا الطاهر، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، د.ط، 1989.
4. توظيف التراث في شعر مُعين بسيسو، نادر ظاهر، تاريخ النشر 06-08-2012 – موقع الكتروني.
5. الجامع الصحيح المختصر، محمد بن اسماعيل، أبو عبد الله البخاري الجعفري، دار ابن كثير اليمامة، بيروت، ج1، ط3، 1987.
6. شعر الثورة عند مفدي زكريا، (دراسة فنية تحليلية)، يحي الشيخ صالح، دار البعث للطباعة والنشر قسنطينة (الجزائر)،ط1407،1ه – 1987م .
7. الشعر الجزائري الحديث وخصائصه واتجاهاته الفنية، ناصر محمد ص 475.
8. الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، عز الدين إسماعيل، دار العوردة، بيروت، لبنان، ط3، 1981.
9. شعراء الجزائر في العصر الحاضر، الهادي السنوسي الزاهري، مفدي زكرياء، ج1.

10. شعرية السرد والتناص في إلياذة الجزائر- خميس رضا- منشورات دار الأديب، د.ط، د،ت.
11. الظاهرة الشعرية العربية، الحضور والغياب حسن قمري منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2001.
12. لسان العرب، ابن منظور، تح: ياسر سليمان أبو شادي، مادّة: ل ح م، المكتبة التوقيفية القاهرة، ج.12 .
13. محمد عيسى وموسى، كلمات لمفدى زكرياء في ذاكرة الصحافة الوطنية الجزائر، دط، 2003
14. مختصر صحيح مسلم للحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري، ط2، دار بن حزم للطباعة و النشر و التوزيع بيروت لبنان 1422 ه ، 2001،.
15. مصادر التراث في شعر مفدي زكرياء، إلياس مستاري، مجلة يصدرها مخبر أبحاث في اللّغة والأدب الجزائري، العدد 9،2013 ، جامعة بسكرة، الجزائر.
16. المعاني القرآنية في إليادة الجزائر لمفدي زكرياء، صافية كساس، جامعة تيزي وزو .
17. المعجم الأدبي، جبور عبد المنعم، دار العالم الملايين بيروت، لبنان ،ط2، يناير 1984.
18. معجم الشعراء الجزائريين في ق 20، عبد المالك مرتاض، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2007.
19. المعجم الشعري عند شعراء الثورة الجزائرية، دراسة معجمية دلالية، محمد العيد آل خليفة، مفدي مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة "دراسة ونصوص"، محمد ناضر، ط2 جمعية الثراث "العطف غرداية، الجزائر.
20. مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة، المؤسسة الوطنية للفنون الطبيعية، محمد ناصر، غرداية، الجزائر ط2، 1989 .
21. مفدي زكرياء شاعر مجد الثورة، حوارات وذكريات، بلقاسم بن عبد الله، ط 3، الجزائر 2003.

الرسائل الجامعية:

- زكرياء، أحمد سحنون (نماذج) ، وهيبة وهيب، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في اللغويات العربية القديمة، نوقش في ديسمبر 2015.

- التناص الديني في إلياذة الجزائر، لعزالي صليحة، مذكرة تخرج لنيل شهادة ماستر في الأدب العربي،2011-2012، جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس، نقلا عن علي عنتري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي، دار الفكر العربي، د.ط، 1997

- أبعاد الرمز الديني التاريخي عند مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر نموذجاً، الطالبتين فاطمة حاج الطاهر، حفيظة طوير، مذكرة التخرج لنيل شهادة الليسانس، جامعة الدكتور يحي فارس المدية، معهد اللّغات وعلوم الاتصال، دفعة 2009.

الفهرس

كلمة شكر وتقدير	
الإهداء	
مقدمة	أ - ب
مدخل: مفاهيم ومصطلحات	7 - 3
الفصل الأول: مفدي زكرياء	27-10
المبحث الأول: سيرته الشخصية	16-10
المبحث الثاني: سيرته الأدبية	27-17
الفصل الثاني: تجليات الثقافة الدينية في شعر مفدي زكرياء	51-30
المبحث الأول: التناص الديني	36-30
المبحث الثاني: توظيف الشخصيات التراثية الإسلامية	42-36
المبحث الثالث: توظيف المصطلح الديني	51-43
الفصل الثالث: وظائف المصطلح الديني في الإلياذة	73-54
المبحث الأول: عرض لموضوعات الإلياذة	63-54
المبحث الثاني: الحقول الدلالية للإلياذة	64-70
المبحث الثالث: المعجم الديني في الإلياذة ووظائفه	71-73
خاتمـــــــــــة	75
قائمة المصادر والمراجع	77-79
الفهرس	81